

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

حكاية جاد الله

Gadalla's Story



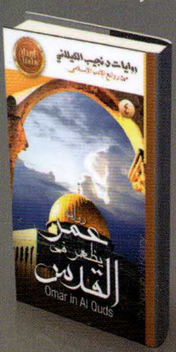
Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



قاتل حمزة



عمر يظهر في القدس





دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: 20242106060+
Email:daralsahoh@gmail.com



Design by Abdul Rahman Magdy

حكاية جاد الله

رواية

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٢٤٨

الترقيم الدولى

977-255-346-0



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



الوقت لم يزل مبكرًا، لكن البيت كخلية النحل طنينًا وحركة، وقد وقف السجان الأمباشى «جاد الله» أمام مرآة الدولاب ليُحكم وضع «الكاب» على رأسه بعد أن أكمل ارتداء ملابسه الصفراء، وحذائه الأسود الثقيل، كان يبدو فتيًا قويًا، وجهه يميل إلى السمرة، وصدره عريض بارز، وشاربه أسود كثيف، وفى عينيه نظرات صارمة حادة، وسمع زوجه ميمونة تقول:

- «الطعام جاهز. . . ».

رمق طبق الفول والباذنجان المسلوق بنظرة شذراء، وتمتم فى ضيق:

- «لقد حُكم علينا بالفول والباذنجان حكمًا مؤبدًا. . .

أعوذ بالله».

ابتسمت ميمونة ذات الوجه الشاحب القمحى، والعود النحيل وقالت:

- «يجب أن نحمد الله يا جاد الله . . . » .

قال فى سخرية وعناد :

- «نحمده على ماذا؟؟ على القحط الأبدى . . . الكثيرون الآن يفطرون المربى والقشدة والبيض و . . . » .

- «نحمده على الصحة والستر يا جاد الله . . » .

- «أنت الفقر نفسه . . » .

وأخذ يجوب الحجرة الضيقة بنظراته الخانقة ، وأطفاله وهم يتسابقون على اختطاف الخبز ، والفراش الرث ، والجدران الكالحة ، والأثاث القديم المتسخ ، والفوضى التى تضرب أطنابها هنا وهناك ، كان متبرمًا ساخطًا على كل شىء ، رافضًا تمامًا لما هو فيه ، يفكر صباح مساء فى حلّ لمأساته كما يسميها دائمًا ، ولا يضيع فرصة إلا إذا استفاد منها ، كل شىء فى الحياة له ثمنه ، وكل شىء ممكن تغييره ، إذا توفر العزم والإصرار ، المهم النجاح ، ولا يهم الوسيلة سواء أكانت قذرة أم غير ذلك وهو ليس شاذًا فى ذلك ، معظم الناس أو كلهم -كما يظن- ليس لديهم ضمير ، الكل يلهث وراء المال وتحقيق الكسب ، أى نوع من الكسب . . . وهو لا ينقصه شىء ذو قيمة لتحقيق آماله ، لديه القوة والعقل والخبرة . .

ثم أخرج من الدولاب لفافة صغيرة، وحملها بعناية فائقة، وفك الحزام، ثم وضعها فى جيب سحرى من الصعب اكتشافه، وكانت زوجه ترمقه بحذر، قالت فى خوف:

- «ما هذا ؟؟».

قال فى بجاحة وقحة يحسد عليها:

- «حشيش وأفيون يا ميمونة..».

- «يا خرابى...».

- «يا جاهلة، إن توصيلها إلى داخل السجن يعنى عشرة جنيهات... أتفهمين؟ عشرة جنيهات... إنها تقل قليلاً عن مرتب شهر... ثم إن هذه ليست أول مرة...».

قالت وقلبها يدق من الخوف:

- «أخاف عليك عند التفتيش..».

- «التفتيش يقوم به واحد من زملائى...».

- «الغدر طبيعة الناس...».

- «الخوف سيبقينا فى الحضيض..».

- «لِمَ لا نرضى بالقليل يا جاد الله؟».

- «لأن القليل لا يكفى... ولأنه ظلم..».

دمعت عيناها، ثم رفعتهما إلى السماء داعية:

- «فليحمك الله يا جاد الله إنه يعلم بحالى وحال عيالى..».

قهقه كشيطان وقال:

- «أنا أشتغل بالتهريب... وأنت بالدعاء والعبادة..». واندفع خارجًا، لم ينتظر حتى يفطر، ولم يستجب لإلحاح زوجه كى يأكل لقمة ويشرب الشاى مع السيجارة التى يدخنها على الريق، كان يعرف أنه سوف يتناول طعامًا شهيًا فى السجن، فالمسجونون يتسابقون إلى إرضائه، والمرضى منهم يتنازلون له عن البيض الذى يصرفه لهم طبيب السجن، والأثرياء منهم يشترون له من المقصف «البوليبيف» والحلوى الطحينية والجبن، والسجائر أيضًا، وفى الظهيرة يجهزون له أطيب الطعام، إنه لا يتكلف مليمًا واحدًا داخل السجن، بل إن إدخاله للممنوعات، يجعل المسجونين يغدقون عليه، والذين يدفعون له يجدون كل حماية ورعاية، والذين لا يدفعون ينالون أقسى القهر والعقاب... لكل شيء ثمنه، وجاد الله يعتقد من قديم أن الرحمة والحب والتعاون كلمات جوفاء لا معنى لها فى السجن، كما أنه لا يؤمن بالشعار المكتوب على واجهة السجن «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح»، الطيبون الذين يسجنون سرعان ما يسيطر عليهم الفساد والضلال، والفاسدون يزدادون فسادًا، وقاموس

المسجونين كلمات مختارة من الفحش والبذاءة والفجر، ذلك المكان مستنقع كبير، يطفح بالقذارة والفتن والعفونة، وهذا يجعل من المسجونين -حسبما يعتقد جاد الله- مجموعة من الحيوانات والبهائم أو الوحوش الضارية، لهذا فهو يستبيح كل شيء، لا يعترف بالقيود القانونية، أو المواضعات الأخلاقية... لقد رأى الناس فى السجن الحربى يُعذبون ويسلخون ويُقتلون، وشارك بنفسه في ذلك تنفيذًا للأوامر، ورأى الناس هنا فى الليمان يعاملون كحيوانات، وحتى فى الخارج.. فى الشارع.. والدواوين.. والمؤسسات، القوى يلتهم الضعيف، والكذب والنفاق والتدليس يملأ الأروقة، إنها لغة العصر، يبتسمون ويعظمون الرئيس وينحنون له، وعندما يخلون إلى أنفسهم يبصقون عليه، لينفسوا عن مشاعرهم المكبوتة... إنهم كالمسجونين تمامًا... الترقيات المهمة للمحاسيب ولمن يرفعون عقيرتهم بالهتاف، والمكافآت للجواسيس والمنافقين... والتقدير والاحترام للجميلات والمومسات... لا أحد منهم يفكر فى الغد... الذى يفكر فى الغد يخاف... والخائف لن يحقق أملاً... وحتى لو أتت لحظة الحساب، وانكشف الغطاء، وتعرى المستور، فهناك ألف وسيلة ووسيلة للإفلات... نحن مجتمع عريق فى التحايل والإفلات يا جاد الله، كل شيء مباح حتى القتل... نعم حتى القتل... لم أترك طالب الطب المسكين حتى لفظ أنفاسه.... ورقد ساكنًا

كحمامة بريشة. . . ماذا جرى؟؟ نلت التقدير. . . وحصلت على لقب عظيم. . لم يعاقبنى أحد، ولم يفكر قائد السجن فى محاكمتى، كان هذا فى السجن الحربى. . . أين الرحمة إذن؟ وأين العدالة والوطنية والأخلاق؟ . . . إن من يتدهور من فوق قمة الجبل لا يستطيع التراجع أو العودة إلى القمة لسبب بسيط؛ لأن السقوط سهل، والصعود شاق، شاق جدًا، وأنا لا أريد أن تدمى قدماى وتتقصف أظافرى. . . . . والقمة ليس فيها شيء ذو قيمة. . . برودة ووحدة وهدوء. . . أنا أحب السقوط إلى الأرض حيث الحركة، الزحام، وكل ما تشتهيه النفس. .

حينما وصل «جاد الله» إلى السجن، شدّ عوده، ورفع هامته، ودلف فى ثقة واطمئنان ظاهرى، كان قلبه يرتجف خوفًا، وجسده يرتعش برغم ثقل الملابس التى يلبسها، كما يتندى جبينه عرقًا خفيفًا، لكن تجاهل انفعالاته الداخلية، ليست هذه أول مرة يحمل فيها الممنوعات، والزملاء من السجانة كما هو معروف يتبادلون المجاملات وليس من المعقول أن يمسك زميله متلبسًا، لكن القلق يستبد به ويزداد حتى إن ريقه قد جف تمامًا، واحتقن وجهه حتى شعر أن إشعاعات حرارية تنبعث منه، وخاصة حينما رأى أحد الضباط يشهد عملية تفتيش السجانة بنفسه، لقد فكر فى الانسحاب والعودة إلى البيت، لكن ماذا سيقولون عنه إذا فعل

ذلك؟ سوف تحوطه الشكوك، وقد يقبضون عليه، ويستدعون النيابة، لا بد أن يمضى جاد الله فيما اعتزمه . . وتمتم يا إلهى . . إن السقوط هو الآخر ليس سهلاً دائمًا . . ، أحيانًا يكون أصعب من الصعود والتسلق، وأخيراً وجد نفسه بين يدى السجان الذى يقوم بالتفتيش، ابتسم فى تصنع ورفع يديه إلى أعلى كما يفعل دائمًا، واقترب منه حتى كاد يلاصقه، وأخذ المفتش يجرى براحتيه حول جسد «جاد الله» من أعلى إلى أسفل، ومن خلف وأمام، ثم بين فخذيه، وهنا قهقه جاد الله قائلاً:

- «احذر . . . لقد لمست مكانًا حساسًا».

وضحك الضابط، وقهقه السجانة، لطرافة التعليق، وعندئذ أعطاهم الضابط ظهره وهو يقول:

- «انتهى . . . دعهم ليدخلوا لقد تأخر الوقت . . .».

تنفس «جاد الله» الصعداء، ودون أن يدرى أخذ يتمتم بحمد الله وأشرق وجهه بالسعادة، كما رقص قلبه من الفرحة، لقد مرّ الأمر بسلام، وكأنه أنقذ من مأزق رهيب لم يكن يحلم بالفكاك منه، إنه يموت ويحيا كل مرة يخفى فيها ممنوعات ويتعرض للتفتيش، لم لا يبحث عن وسيلة أخرى، وعلى الرغم من أن جاد الله يعادى الخوف، يعلن ذلك أمام الجميع ويتباهى به إلا أنه فى هذه اللحظات الحرجة بالذات يشعر أنه يكاد يغمى عليه من الخوف.

قبل أن يفتح الأبواب للسجناء، قصد زنزانة السجين «محفوظ» أولاً، ثم أخرجه وحده، محفوظ سجين معروف، وهو بمثابة المساعد الأول للأمباشي جاد الله، ويعاونه فى فتح الزنازين وفى إغلاقها، وفى عمل الإحصاءات اليومية للمسجونين، وفى توزيع الطعام، وتنظيف العنبر، وهو -وذلك هو الأهم- واسطته أو مندوبه، فى توصيل الممنوعات لأصحابها وتقاضى الثمن، ومحفوظ سجين قديم، حكم عليه فى العديد من القضايا، ودخل السجن بضع مرات، فهو مستوعب تمامًا لنظام السجن والحياة فيه، والأخلاقيات التى تحكمه . .

تسلم محفوظ «الأمانة» الملفوفة، ثم عاد إلى زنزانته كى يدبر أمره، وبعد فترة وجيزة جاء ليفتح الأبواب مع «جاد الله»، تحسس جاد الله ورقة الجنيهات العشرة فى جيبه، شعر بالارتياح والدفء وأخذ يدندن ببعض الأغنيات الشهيرة، لم يكن يفقه لها معنى؛ لأنه غير حريص على ذلك، إنه فقط يريد أن يشغل نفسه بصوته وهو يدندن، وازدحمت الطرقات بالسجناء وهم يحملون «جرادل» البول والماء، ويتقاطرون على دورة المياه، وقال جاد الله باشمئزاز بالغ:

- «رائحة قاتلة . . أعوذ بالله . . إنها كرائحة الحمير الميتة . . متى يتوب الله علينا من هذا العذاب؟» .

وأطبق على فتحتى أنفه بإبهامه وسبابته وعلق محفوظ الواقف إلى جواره قائلاً:

- «والله أنت خسارة كبيرة يا جاويش جاد الله . . . أنا وحدى الذى يعرف قيمتك . . » .

- «وما الفائدة؟» .

اقترب محفوظ منه أكثر ، حتى كاد يلامس أذنه . . وقال :

- «ألم تفكر بعد؟» .

- «فكرت كثيراً . . . لكن . . » .

- «لكن ماذا؟ تزييف العملة سهل جداً . . لا يحتاج لمجهود . . ويدر دخلاً كبيراً فى أقصر مدة ممكنة . . » .

- لكنهم قبضوا عليك يا محفوظ ، وها أنت تدفع الثمن من شبابك . . » .

- «أقسم لك . . . كانت وشاية . . » .

- «ولِمَ لا يحدث لى ما حدث لك؟» .

- «أنت غيرى . . أنت حكومة ، ولن يشك فيك أحد ، وستظل بعيداً عن أعين الرقباء ، ما عليك إلا أن تطبع . . وتسلم الأوراق «لإنتصار» إنتصار زوجتى . . . وهى تعيش فى مكان جديد آمن كما قلت لك ولا يعرف مكانها إلا أخلص الخلصاء . . خاصّة الخاصّة . . . لن تكون مسئولاً عن ترويج العملة . . . افهمنى . . . إن إنتصار زوجتى تنتظر . . ما عهدت فيك خوفًا من

قبل . . . وفى شهور قليلة تستطيع أن تستقيل وأن تترك هذه المهنة الملعونة . . . وتشترى فيلا أنيقة تعيش فيها . . . وتملك أن تشترى عشرة أفدنة فى بلدكم وتركب سيارة أنيقة . . ليس حلمًا . . . لقد استطعنا أن نفعل ذلك لولا أولاد الحرام ، ومن أن يتحقق ما تشتهيه يا جاد الله . .

- «عليك أن تسلم الماكينة من جديد لإنتصار ! ! ويمضى كلٌ لحال سبيله . . . افهمنى يا جاويش جاد الله . . إن المسألة أبسط بكثير مما فعلته اليوم وتفعله من وقت لآخر ، إنك تحضر لنا كل الممنوعات ، فهل يصعب عليك تشغيل ماكينة الطباعة؟؟

كان جاد الله يستمع إليه بإمعان ، وتمتم :

- «أعرف أننى وغد «جسور» لكنى أريد أن أفقد كل شىء . . » .

- «مجرد أوهام . . . » .

أطال جاد الله النظر إليه ، ثم قال :

- «سأتخذ قرارى . . . » .

- «إذن أولاً إلى إنتصار . . مجرد زيارة . . إنها تنتظرك . . . » .

- «لا بأس . . » .

هبّ جاد الله واقفًا ، ثم أخذ ينفخ فى صفارته ، ويهتف بأعلى صوته :

- «الجبل . . . الجبل يا بهايم . . » .



سمع صوتها من الداخل يترقرق بالميوعة والدلال المثير :

- «تفضل يا حضرة الصول . . البيت بيتك . . » .

سرت القشعريرة فى جسده ، وارتبك وسعل ، ثم انفتح الباب عن وجه كالقمر ، تكسوه نضارة طبيعية ، وعينين جميلتين فيهما وحشية وعنف وجرأة .

- «أظنك الست إنتصار . . » .

وجاءت ضحكاتها المتكسرة لتزيده ارتباكًا :

- «ينصرك الله على من يعاديك . . . أعرفك . . . رأيتك كثيرًا . . . حضرة الصول «جاد الله» حدثنى عنك زوجى «محفوظ» كثيرًا . . وكنت ألمحك أثناء زيارتى له فى السجن . . » .

وأخذ يحدثها وهو يرتشف كوب الشاى الساخن عن اهتمامه بزوجها ، ومساعدته له فى كل ما يطلب ، وتوفير كافة أسباب

الراحة له فى السجن، وأبدى إعجابه بشهامته ورجولته، بل وشجاعته الخارقة أيضًا . .

كانت إنتصار تروح وتجيء دون كلفة أو تصنع، لقد تركت شعرها الأسود الفاحم متهدلاً على كتفيها، وطوق قميصها الواسع يبرز جزءًا من مفاتنها الصارخة، ووجد الصول جاد الله -أو يعتبر أدق الأنباشى جاد الله ؛ لأنه لا يحمل على ذراعه سوى شريطين لا غير، وجد نفسه يقارن بين إنتصار البضة الفاتنة التى تتدفق حيوية وجمالاً وبين أم عياله «ميمونة» التى ترهلت وضمرت وشحب وجهها، دق قلبه، الخواطر الآثمة تفح فى روحه فحيحًا، لعنة الله على العمل فى السجون.

إنه لا يرى طوال اليوم سوى السترات الزرقاء، والوجوه الكالحة، والجبل الأغبر، ولا تسمع أذناه غير هدير السباب والشتائم المقزعة، وأوامر رؤسائه الضباط واحتقارهم له، وتعاليهم عليه، عالم كله فساد وقذارة وقهر، ما أبشع تلك الحياة!! فإذا عاد إلى منزله وسط مساكن السجانة، وجد النوم يغالب زوجه، والأولاد يرفعون صوت المذياع، ويتشاجرون ويسخطون ويصرخون، وكل واحد منهم يطلب شيئًا، وأفاق من شروده على صوتها الحنون:

- «إننى فى محنة . . وليس إلى جوارى أحد».

- « وأهلك؟» .

- «مات الوالدان منذ زمن بعيد . . . والإخوة والأخوات ساحوا فى الدنيا الواسعة . . . . ليس لأحد عنوان . . » .

ثم هزت كتفيها فى سخرية قائلة :

- «وحتى لو عرفت مكانهم . . . فإن الموقف لن يتغير . . » .

- «لا بد وأن يساعدوك . . » .

فقهقهت بمرارة :

. . «كل يبحث عن نفسه . . . ويحفر الأرض بأصابعه ليجد الرزق . . . يكفى كل واحد منا ما يحمله من هموم . . دعنى أصنع لك فنجانًا من القهوة المضبوطة . . » .

لم يبد عليها أى أدنى اعتراض ، ولعله سعد بهذا الاقتراح الوجيه ، إنه سعيد بهذه الجلسة ، إنه يمشى رويدًا رويدًا كل شىء فى العالم الآخر ، وينحصر عالمه الآن فى هذه الحجرة الضيقة الدافئة ، والتى لا تحوى سوى أثاث بسيط منسق جميل ، وفى جنباتها يفوح أريج من نوع غامض يبعث موجات خفيفة فى جسده ، وحينما مدت له يدها بفنجان القهوة تسمرت عينه على الأساور الذهبية والساعد الفاتن ، والأنامل الرقيقة المخضبة ، ووجد نفسه يقول مقدمات ، بدون مناسبة مفهومة :

- «أطلقوا عليّ وحش السجون الحربية . . . أتعرفين! !» لمست كتفه الضخم فى رقة غريبة وقالت :

- «ومع أنك وديع لطيف، تبدو على وجهك الطيبة . . » هتف فى إصرار :

- «لا تغرنك المظاهر . . فأنا صعب . . لا أخاف أحداً . . » .

وأخذ يرتشف جرعات من القهوة، ثم يتنفس الصعداء، ويبدى المزيد من الارتياح والاسترخاء، ثم قال فى هدوء غريب :

- «البطولة هراء . . . والمبادئ هراء . . . » . قالت وهى تتصنع البلاهة :

- «لا أفهمك . . » .

أشار بسبابته اليمنى إلى حذائه الأسمر الضخم فى افتخار وقال :

- «لقد كانوا يقبلون حذائى هذا . . . . » .

- « من؟» .

- «باشاوات . . . وبكوات . . . وعلماء . . . وزعماء، كنت أشويهم بالكرباج بحذائى هذا حتى يعترفوا . . . » .

- «يعترفوا بماذا؟ . . . » .

- «بأى شىء . . نعم أى شىء . . حتى ولوا كانوا أبرياء . . .».

- «حرام . . .».

ضحك ضحكات متتالية، حتى دمعت عيناه وهو يقول :

- « هل هناك أبرياء فى هذا الزمان؟ العالم كله ملعون . . . لقد طوفت بالسجون كلها على مدار عشرة أعوام، فلم أجد فيها إنسانًا طيبًا محترمًا . . . ».

قالت فى دلال :

- «زوجتك . . .».

قهقه فى ازدراء :

- تقصدين تلك البقرة؟ حياتها أكل وشرب وعمل ونوم . . ولا تعرف عن الدنيا شيئًا له قيمة . . . إنها كالسجّان تؤدى كل شىء حسب النظام والأوامر . .

وعندما ألمحت إلى إنه هو الآخر سجّان، نفى ذلك بشدة، إنه يلبس بدلة العسكرية، لكن فى داخله طموحات وأفكارًا مغايرة تمامًا، إن الحياة فى نظره تقلب الموازين، وتغمط الكفاءات حقوقهم، إنه يفهم أكثر من مائة ضابط من رؤسائه، ولولا قلة المال، وضياع فرصة التعليم لأصبح اليوم عضوًا بارزًا من أعضاء مجلس الثورة، وتأهبت له الأكف بالتصفيق، وشقت الحناجر له

بالهتاف، وتصدر المحافل والاجتماعات ولأصبح على الأقل «المشير جاد الله». . .

ضحكت، فاستطرد قائلاً:

- «قد يبدو اسمي نشازاً بعض الشيء. . .».

- «لا أقصد. . .».

- «ماذا تعنين إذن؟».

- «لقد فعلت القهوة فعلها. .»

قال في دهشة:

- «ماذا بها؟؟».

- «شيء بسيط للانسجام والإنعاش».

- ملعونة!! حشيش؟؟

- «هذه عادته. . أعني محفوظ. .».

وجلست على ركبته، وأحاطت عنقه بذراعيها. . .

●●●



عاد إلى بيته قبيل الفجر ، كان يترنح وقدماه لا تكادان تحملانه والطريق يطول ، والزمن يمتد ، ومسجد على الطريق يقبع فى سكون وقبته بيضاء تشع معانى غامضة ؛ ارتجف من الخوف ، وتفصد جبينه عرقًا . . وصرخ بأعلى صوته :

- «إننى أرى الله . . . . أكاد أحترق» .

وانتزع قدميه من الأوحال وجرى . . . ثم جرى وهو يلهث . . خيل إليه أن شياطين الأرض تجرى وراءه ، وإن هى أدركته فسوف تحطم رأسه ، وتمزق جسده ، وهو حريص على الحياة . . لا يريد أن يموت أو يتعذب ، صرخ مرة أخرى :

- «أنجدونى . . أغيثونى . . اللصوص . . » .

شعر بيد فى الظلام تقبض على ذراعه بقوة ، هتف فى رعب :

- «من أنت؟؟» .

- «اطمئن غفير الدرك . . . » .

- «لا تتركنى . . أنا أخوك . . . ».

مسح خفير الدرك على شاربيه قائلاً :

- «فعلتها يا جاد الله . . يعنى حاميها حراميها . . ».

- «أقسم كانوا يطاردونى . . . ».

- «ورائحة الكحول هذه . . . ».

- «لا . . لا . . مستحيل . . ».

- «عينى على الرجال حين يسقطون . . ».

وأخذ جاد الله إلى منزله ، ثم انصرف . ويقى جاد الله أمام الباب لحظات ، وأخذ يدق فى تراخٍ ، جاءه صوتها من الداخل :

- «أليس معك مفتاح؟؟»

- «افتحى يا بهية . . ».

وسمع خطواتها المتثاقلة تدق على الأرض ، وعندما دلف إلى الداخل لاهثًا ، نظر إلى ما حوله ، كان الضوء خافتًا ، والأولاد والبيت مبعثرون هنا وهناك على سجادة مهترئة ، والأغطية البالية تلفهم ، وقفص للدجاج هناك فى ركن قريب ، وأذن الديك فجأة فأثار الرعدة فى جسده ، فصرخ فى غضب وعيناه محمرتان :

- «هل هذا مكان للفراخ؟».

- «إنها هنا من قديم..».

- «إنه شيء فظيع.. فظيع.. ألا تفهمين؟».

طار النوم من عينيها، أدركت بحسها أن الأمر ليس طبيعيًا، وأن شيئًا ما لابد قد حدث لزوجها، ليست هذه عادته ولا طريقته، داخلها خوف مبهم، وانتابها الوساوس من كل جانب، إنها تنظر إليه فتجد إنسانًا آخر غير الذى تعرفه.

- «جاد الله..».

-«ماذا تريدين من جاد الله..؟».

- «أين كنت؟؟».

هرب من نظراتها، وأخذ يخلع سترته وحذاءه ويلبس جلباب النوم وينشغل بأمور تافهة وهو يردد:

- «كنت فى مأمورية..».

- «مأمورية؟ لا أصدق .. أنا أعرفك.. أنت لم تخبرنى..».

- «كانت مفاجأة.. أو كنت تظنين أن أرسل إليك برقية، أو أبعث «تلكس» أو أكلمك فى التليفون.. بالمناسبة كم رقم تليفوننا؟؟ ها..ها..ها..».

اقتربت منه وسددت إليه نظرات فاحصة، وجسدها يرتجف:

- «قال زملاؤك: إنك خرجت معهم..».

- «أهو تحقيق رسمى إذن؟».

- «أنا شريكة حياتك..».

مد إليها وجهًا غاضبًا، وعيناه تقدحان بالشرر:

- «ليس لى شريك... أنا حر..».

- «منذ متى؟؟».

- «منذ أن خلقت..».

ظلت عيناها مفتوحتين مسددتين صوبه، وهو لا يتحرك بلا وعى فى الغرفة الضيقة كفأر حبيس فى مصيدة، ولما شعر بالتعب ألقى بجسده المنهك على السرير الخشبى.

- «هل تأكل يا جاد الله؟؟».

- «لا...».

اقتربت منه فى ود حزين دامع، أمسكت بيده ثم رفعتها إلى فمها وقبلتها، نظر إليها فى ألم دفين، ثم سحب يده فى رفق، وتحول إلى الجانب الآخر، كان يزفر فى ضيق، وتمتم:

- «ليتنى أموت».

- «بعد الشر عنك؟ لماذا».

- «لا يعجبنى شىء فى الحياة».

- «المهم أنت . . » .

- «أنا ؟ هه . . من أكون؟؟ ثور أحمق يدور فى ساقية . . وأتعاطى كل يوم طنًا من المخدرات . . » .

- «يا خرابى . . مخدرات؟» .

- «أجل . . مخدرات اسمها الصبر . . القناعة . . الطاعة . . النظام . . الشرف . . الكرامة . . وأعيش فى غيبوبة . . ولا أعرف شيئًا . . ماذا تعرفين أنت؟؟ الأولاد . . الأكل . . النوم . . غسيل الملابس . . كلنا ثيران يا ميمونة . . » .

- «أقسم أنك شربت شيئًا . . » .

وتناهى إلى سمعها غطيطه المميز ، من حسن الحظ أن الغد هو يوم الجمعة ، وإلا كيف كان فى مقدوره أن يذهب إلى العمل ، ويخرج مع المسجونين إلى الجبل وهو على هذه الحالة من الإعياء والتوتر . وغادرت ميمونة الغرفة ، وهى تمشى على أطراف أصابعها ، ثم أغلقت عليه الباب فى هدوء بعد أن أطفأت النور ، كانت تقول لنفسها : إن علاجه هو الراحة والصبر ، وهى تعرف أنه عنيد حاد العواطف ، سريع الغضب والعنف ، لكنه سريع العودة أيضًا إلى الهدوء ، هى تذكره أيام السجن الحربى وكان يأتى إليها يشرح لها تفننه فى تعذيب السياسيين وخاصة الباشاوات والإخوان

المسلمين، وكان يفتخر بأنه الوحيد الذى سجل الأرقام القياسية فى سرعة انتزاع الاعترافات، وعندما كانت تتألم وتستنكر عمله، كان يؤكد لها أن هذا التصرف منه واجب وطنى يمليه عليه ضميره وإخلاصه لبلاده وقيادتها؛ لأن المعارضين خونة متمردون، ويتعاونون مع أعداء البلاد من يهود وإنجليز وأمريكان، ثم إنه كرجل عسكرى لا يستطيع أن يعصى الأوامر التى أصدرها الرئيس ونقلها إليه المسئولون الكبار، وكان يقهقه وهو يؤكد لها أن البلد ممسوكة بيد من حديد. وأن الإجراءات الحازمة ضرورية لأمن البلاد وتقدمها وصمودها أمام أعدائها الكثيرين، وأن الحمقى من رجال الفكر والسياسة والشباب لا يفهمون الأمور على وجهها الصحيح. . . لكن ميمونة تذكر أيضًا أنه عاد ذات ليلة من السجن الحربى. . . وكانت حالته فى منتهى السوء، لم يكلمها هذه المرة عن الخونة والنظام والأوامر والقضاء على الرجعية والاستعمار، لكن جلس صامتًا أمام الطعام. . وظل شاردًا بضع لحظات، ثم. . . ثم انفجر باكيًا، كانت تراه يبكى لأول مرة منذ أن تزوجته، بل إن أفظع الكوارث لم تكن لتجعله يدمع دمعة واحدة. . يومها سألته:

- «ماذا بك. . كفى الله الشر؟».

قال وهو يشهق باكيًا:

- «لقد مات. . .».

- «من يا جاد الله . . . المدير؟؟» فلم يهتم بسؤالها واستطرد:

- «ضربته على رأسه فمات. . لم أكن أتصور أن يحدث ذلك. .».

وهبت مذعورة:

- «إذن سيقبضون عليك، ويقدمونك للمحاكمة، وتفقد وظيفتك التى نعيش من مرتبها. . . يا للكارثة!!».

تمتم:

- «اطمئنى على الوظيفة. . لكن أنا. . لقد كان الضباط يضحكون. . ركلوا الضحية بأرجلهم. . . كان شابًا صغيرًا لا يتجاوز التاسعة عشر. . . من طلبة الجامعة لا أعرف اسمه. . قالوا إنه عضو فى الجهاز السرى. . أنا يا ميمونة لا أعرف ما هو الجهاز السرى. . . كتبوا أمام اسمه «هروب». . واستمروا فى عملهم كالمعتاد. . . قالوا لى: استلم سجينًا آخر ولا تتركه إلا إذا اعترف أو مات. . أنت بطل يا جاد الله. . من اليوم سنطلق عليك اسم «وحش السجون الحربية»، لكنه مات. . . أيمكن أن يكون مظلومًا؟؟ كان المسكين يتوسل إلىَّ ويقول لى: إنه برىء ولا يعرف أى شىء عن الأمور التى يسألونه عنها، وأنه وحيد أبويه، وأنه طالب فى كلية الطب، وأن أباه باع الفدانين اللذين يملكهما فى القرية حتى ينفق عليه كى يتم تعليمه. . كان فى السنة الثانية. .

قلت له: اكتب يا ولد دواء يقوينى ويساعدنى على السهر حتى واستمر فى تعذيبهم.. تصورى وأخرجت له ورقة وقلمًا وكتبًا.. انظرى هذا هو الدواء... أحضروا لنا يا ميمونة أحد العلماء المخلصين.. وأفتوا لنا أنه يجوز شرعًا معاقبة المفسدين فى الأرض وقتلهم وصلبهم... وعندما مات سقط قلبى من الخوف.. إنها أول مرة أقتل فيها إنسانًا.. من لا ينفذ الأوامر على المسجونين يصير مثلهم... من لا يَقتل يُقتل.

وبينما كانت الذكريات تستولى على رأس ميمونة سمعته يصرخ:

- «ميمونة».

- « رأسى يكاد ينفجر...».

شرب الشاى، وتناول الأسبرين، ثم عاد للنوم وعادت ميمونة مرة أخرى لأفكارها وهواجسها وهمومها، إن ما حدث اليوم لزوجها يشبه إلى حد كبير ما حدث له بالأمس، برغم المظاهر الخارجية للمأساة، لكن ميمونة واثقة أن جاد الله سوف يعود فى وقت قصير إلى حالته المعهودة تمامًا كما حدث فى الماضى، لقد نسى مأساة موت الشاب ، وخاصة بعد أن نال ترقية واستمر فى أسلوبه القاسى مع المعتقلين آنذاك، كان يفرح بالمكافآت السخية التى تغدقها عليه الرئاسة، كما كان يحصل مبلغًا لا بأس به من

تهريب خطابات المعتقلين للخارج . . الخطاب بخمسة جنيهات كاملة . . إنها تضاهى نصف مرتبه الشهرى ، وكان جاد الله يبتسم ويقول : أرزاق ، وإلا فكيف يطعم هذه الأفواه الجائعة . . . وكان يخفف التعذيب عن بعض المعتقلين إذا دفعوا المعلوم ، وحتى بعد أن ترك السجون الحربية ، واستقر به المقام فى السجون المدنية ، ظل مواظبًا على الاستفادة من الخدمات غير المشروعة التى يقدمها لسجناء الليمان ، وإن كان نقل الخطاب أصبح بجنيه واحد وإدخال المخدرات بعشرة جنيهات ، وتهريب الممنوعات الأخرى بالثمن المناسب .

إن أحداث السجون الحربية أصبحت مجرد ذكرى ، لقد تألم فى البداية وهو يمارس ألوان التعذيب ، ويقتل أحيانًا ، لكن الأمر بعد ذلك اتخذ صفة العادة ، فلم يعد يأبه لمن يموت أو يتألم أو يصاب بعاهة ، وإذا حاول ضميره أن يصحو مرة أخرى ، فإنه سرعان ما يجد المبررات ، ويلتمس المعاذير ، إذ إن رؤساءه هم أصحاب السلطة العليا وهم الذين يفهمون مصلحة البلد ، وينفذون السياسة المرسومة ، وهم الذين يأمرون . . . فلا ذنب له . . . هل سيدخل الله «عشماوى» النار ؛ لأنه ينفذ أحكام الإعدام التى يصدرها القضاء؟ إن موقفه مثل عشماوى تمامًا . . . وجميع زملائه السجانين يفعلون الشيء نفسه . . . فلماذا يتعب باله ، ويؤرق ضميره ، ويتعذب بلا مبرر . . . هكذا فلسف «جاد الله» الأمور وارتاح لذلك التصور

السلس المبسط، لكن الشيء الذى أثلج فؤاده، وجعله يمشى بين أقرانه فى السجون الحربية منتفخ الأوداج هو اللقب الذى أنعموا عليه به: «وحش السجون الحربية»... كان هذا اللقب أسمى وأروع من لقب «الباشا» الذى تم إلغاؤه.. وكان ينتشى وهو يمسك بالكرباج ويسأل المعتقلين قائلاً:

- «من أنا؟؟».

فيردون بصوت هادر كالرعد:

- «وحش السجون الحربية.. يا أفندم..».

ويظل يسأل، ويسمع الجواب، مراراً وتكراراً، وزملاؤه يضحكون، والضباط يبتسمون.

ويتذكر «جاد الله» أنه ذهب إلى ضابطه ذات يوم، ودق الأرض بحذائه الثقيل، وأدى التحية العسكرية، ثم قال:

- «لى طلب يا أفندم».

- «ترقية أخرى يا جاد الله؟؟».

- «لا يا أفندم...».

- «قل بسرعة...».

- «أن يظل لقب «وحش السجون الحربية» لى وحدى..». فهقه الضابط حتى كاد يستلقى على قفاه، وهو جالس فى مقعده، ثم

قال بهدوء:

- «لك ذلك...».

- «شكرًا يا أفندم..».

ثم قال الضابط مردفًا:

- « ما دمت ملتزمًا..».

- «كل الالتزام يا أفندم..».

-وصمت الضباط برهة ثم قال بجدية:

- «ألا يؤنبك ضميرك يا جاد الله؟؟..».

- «أبدًا يا أفندم.. هذا شرف عظيم يا أفندم..».

لوى الضابط شفته السفلى وقال:

- «أنت ممتاز يا جاد الله... وأيضًا... حيوان يا جاد الله...».

- «ماذا؟ حيوان يا أفندم؟».

- «نعم، هل غضبت؟؟».

قال بسرعة.

- «لا.. لا.. يا أفندم... مقبولة منك... كل كلامك على العين والرأس يا أفندم.. أنت سيدى وتاج رأسى يا أفندم.. كل كلامك خفيف وظريف يا أفندم..».

وأراد جـاد الله أن يخـرج فـدق الأرض وأدى التـحـيـة ، لكن الضابط طلب منه الانتظار وسأله :

- «ماذا كنت تعمل قبل الجيش؟» .

- «سـائس فى إصطبل علوى باشـا يا أفندم . . » . وابتـسـم الضـابط وهو يقول :

- «أصيل يا جاد الله !! وأبوك؟» .

- «شىء مخجل يا أفندم . . » .

- «تكلم يا جاد الله . . وإلا . . » .

ويلوح له الضابط بكرباج كـان موضوعًا فوق مكتبه ، فقال جاد الله على الفور :

- «سأعترف يا أفندم . . » .

وضحك الضابط ، وقال جاد الله :

- «فى بار ومرقص «دينا» الفنانة دينا . . . » .

- «طبال؟؟ زمار؟؟ رقاص؟؟» .

- «لا . . فتوة يا أفندم «حارس خاص» بودى جارد . . » .

ودق جرس التليفون ، فقال الضابط وهو يمسك بالسماعة :

- «مع السلامة يا وحش السجون الحربية» .



وفى اليوم التالى لم يستطع «جاد الله» أن يذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة مع زملائه السجانة، ومن المعروف أنه كان يحرص على صلاة الجمعة فقط كل أسبوع، على الرغم من أنه لم يكن يفهم من الخطبة أو الصلاة شيئًا، كان يظل طول بقائه فى المسجد شاردًا، لا يستطيع أن يتابع ما يقوله الخطيب، فهو دائم التفكير فى المستقبل، وفى جمع المال، والبحث الدائب عن فرص الكسب والنمو من أى طريق، لكنه هذه المرة تعلل بالمرض، كان يريد أن يظل حبيس البيت، حتى يجد الفرصة المواتية للتفكير، إنه مقدم على عمل خطير، إما أن يصعد إلى أوج السماء، أو يهبط به إلى حضيض الضياع الأبدى، فالأمر يحتاج إذن إلى تفكر وتدبر وهدوء، وليس من المصلحة أن يقدم على هذا العمل الخطير دون تروٍّ ودراسة مستفيضة، لقد كتم الأمر عن كل من حوله حتى خاصته، فزوجه ميمونة لا تعرف شيئًا، وكذلك أصدقاؤه المخلصون، اثنان فقط يعرفان هما: «إنتصار» وزوجها السجين «محفوظ» كان المؤذن يتغنى فوق المسجد قائلاً:

- «لقد فاز بالرضوان مَنْ سمع النداء ولبى مجيبًا . . » . أما جاد الله فقد بقى مضطجعًا على سريره، ومعه قلم رصاص وورقة انتزعها من كراسة ابنته، وأخذ يجرى بعض العمليات الحسابية البسيطة من جمع وضرب وطرح فقط، لأنه لم يكن يعرف القسمة جيدًا، وإن كان يعرف القراءة والكتابة بدرجة مقبولة، ويحفظ بضع آيات من القرآن، لكن -وهنا وجه الغرابة- يشترك فى الإفتاء لزملائه السجانين، حتى إنهم أحيانًا كانوا يطلقون عليه الشيخ جاد الله . . وكان يستفيد من بعض المناقشات التى يسمعها هنا وهناك، أو بعض الآراء التى نقلت إليه شفاهًا، وكأنه يجتهد عابثًا فى ابتداع بعض الأحكام الخاطئة التى لا أصل لها، ويحاول فى استماتة أن يدلل على وجهة نظره بأساليب المكر والدهاء والتلاعب بالألفاظ، كما كان يردد بعض الشعارات السياسية التى يسمع عنها فى الإذاعة، أو يلتقطها من أفواه المساجين، أو يسترق السمع إليها عندما يتحدث الضباط . . أو يتلقفها وهو راكب الترام أو القطار أو الحافلة . . . ومن تلك النفايات الفكرية، والمخلفات الثقافية صنع لنفسه فلسفة أو وجهة نظر أو رأيًا، ويتشبث بما يقول أو يعتقد فى إصرار وأنانية لا نظير لها . . . لكنه كان يبدو أمام زوجته وأطفاله وكأنه عالم العلماء، والفهامة الذى لا يدانيه أحد، ويسخر من فقه الفقهاء وجعجعة المثقفين .

قال لزوجه وهو يتناول طعام الغداء بعد الجمعة :

- «الدنيا تتحرك . . . تجرى بسرعة . . . والأولاد يكبرون . . . ونحن ما زلنا ثيرانًا ندور . . . وندور حول الساقية بلا نهاية ، هل كتب علينا أن نظل ندور حتى الموت؟» .

فهمت بفطرتها أن الأمر غير عادى :

- «ادخل فى الموضوع مباشرة . . .» .

- «أقول يجب أن نتحرك . .» .

قالت : «إلى أين؟؟» .

قال : «هذا هو السؤال» .

فهمت ميمونة أنه ربما يفكر فى مشروع ما ، يستغل فيه ما ادخره من مال المسجونين طوال السنوات السابقة ، وبدا الأمر لها بسيطًا غاية البساطة ، ولا يصح أن تلابسه تلك الحيرة القاتلة التى ترتسم على وجه زوجها ، لهذا قالت :

- «الأمر بسيط . .» .

- «كيف؟؟» .

- «نشترى قطعة أرض صغيرة فى «طرة» ، ونبنى بيتًا . . أنت تعلم أن أزمة المساكن خانقة . . وجميع المستأجرين يدفعون الخلو المقدم . .» .

لم يرد عليها، كان غارقًا فى التفكير، على الرغم من أن فمه يلوك الطعام، ولما رأته معتصمًا بالصمت قالت:

- «وأستطيع أن أبيع ميراثى من أبى وأمى فى القرية.. هذا سوف يساندك كثيرًا».. ولما لم تجد منه جوابًا، أمسكت بيده وهزته قائلة:

- اصح... هه.. هه..».

التفت إليها كمن يفيق من حلم:

- «إننى يا ميمونة أبحث عن طريق غير مألوف...» قالت وهى تحذره:

- «جاد الله امش مستقيم يحتار عدوك فيك..».

- «جميع الطرق الآن ملتوية يا ميمونة..».

- «لا تجلب علينا المصائب..».

- «الخائف يظل واقفًا... والناس تجرى...».

- «أريد الأمان يا جاد الله لنا ولأولادنا...».

- «المال أمان..».

- «لكنه لا يدوم..».

- «إنه يدوم يا بلهاء.. ويتوارثون جيلاً بعد جيل.. لو كان عندى المال من البداية لما عشت فى ذل... ولما قتلت...

وارتشيت. . . وكذبت ونافقت. . . أتعرفين يا ميمونة أننى فيلسوف؟؟ سمعت أحد الخطباء يقول العمل فضيلة. . فقلت له المال فضيلة. . وحدث هرج ومرج. . وقهرته فى المناقشة. . لم يستطع أن يرد علىّ. . أنا أفهم الحياة أحسن من أى إنسان. . ».

قالت فى خوف:

- «لا أفهمك!! أعرفك لا تطيق الصبر. . والدنيا لم تبقَ فى ساعة واحدة. . والعمر طويل. . ماذا يقلقك؟ إننا نأكل ونشرب ونلبس وأولادنا يذهبون إلى المدارس. . هل ينقصك شىء؟».

- «نعم. . ينقصنى الكثير. . تنقصنى الكرامة مثلاً. . لو عندى مال لكان أول شىء فعلته هو إحراق هذه البدلة الصفراء. . هل سمعت عن الحذاء الشمواه. . والصوف الإنجليزى، والنظارة البيرسول. . والجرفتة السلكا، ومعطف الفرو يا ميمونة؟ طبعًا لا تعرفين. . رأيت زوجة مدير الليمان. . . كانت تركب سيارة ستة أمتار. . . الحرس يجرون حولها. . . تمشى فى أنفة مثل ملكة تلبس الحرير. . . وتفوح منها رائحة المسك. . تلك هى الحياة الحقيقة يا بنت «بنت مدبولى».

حالة جاد الله تتغير من يوم إلى آخر، لقد أصبح إنسانًا آخر، أو وحشًا من نوع آخر غير ذلك الوحش الذى ازدهى غرورًا وكبرياء فى السجون الحربية، إن عملية التحول التى تجرى فى داخله قد

تركت بصاماتها على تصرفاته وأقواله وحركاته، وأصبح كل شيء قذرًا مقلقًا كئيبًا فى نظره، إنه يريد حياة غير الحياة، موقعًا غير الموقع الذى زرعوه فيها، لقد افتقد العدالة منذ أن كان طفلاً، كان أبوه «كلب حراسة» كما زعموا، وكانت أمه مثار الشبهات، أما هو فقد تعامل مع الحيوانات . . . والخيول بالذات . . . وفى الحظائر كان يحلم أحلامًا قذرة أحيانًا، وأحلامًا وردية أحيانًا أخرى، وعلمته الخيول الصبر . . كما علمته استخدم الشدة، فى كبح الجماح عند الضرورة، كان يرى سيدة القصر وبناتها وأبناءها فيسيل لعابه، وكان يرى الباشا الكبير فينكمش كفأر مذعور.

وفى الجو المشحون المتوتر عرف كيف يكذب وينافق، ويحاور ويداور، حتى الخادمات فى القصر والمزرعة كن يأنفن منه، وظل ليالى طويلة يكتم الحقد العريق فى قلبه العليل، لقد ضربوه بالسياط صغيرًا، وصفعوه على وجهه وقفاه كبيرًا، ويوم أن جروه إلى «التجنيد الإجبارى» أقسم ألا يعود، ووجد فى الجيش الكثير من الحزم والردع، لكنه كان عامًا، لم يختص به فرد دون آخر، وكان على أية حال قهر من نوع مقبول، أقل كثيرًا من حظيرة الخيول والحيوانات فى عزبة الباشا . . . تأكد قديمًا أن الباشا قوى بماله وأرضه وحاشيته، وفى الجيش تأكد من قوة السلطة والرتب والنظام المفروض . . المال والسلطة هما الكرامة والشرف، من الحماقة أن يبقى بلا مال أو سلطة، ولا بد أن يبحث عنهما فى أى

مكان، وبأى أسلوب. . . وعندما اختاروه ليعمل فى السجن الحربى، كشف عن ساعد الجد، وساهم بنصيب موفور مهتزًا فى البداية، لكنه سرعان ما تأقلم، ووجد المبررات الكافية لقسوته الضارية. . اكتشف أنه يكره رجال السياسة والعلم والمثقفين عمومًا ويكره أصحاب السلطة، وخاصة القدماء منهم، أصحاب العزب وإسطبلات الخيل والقصور والسيارات الفارهة.

قال له صديقه الأمباشى «حسنين أبو زهرة».

- «أنت على أبواب فضيحة يا جاد الله».

- «ليس هناك دخان بدون نار».

- «أنا أعرف نفسى. .».

- «هذا عيبك. . المساجين يتحدثون عنك».

- «أنت تعرف المساجين يا حسنين. . كلهم كذابون».

- «لكنى أعرف أنك تقدم لهم الخدمات الخطرة بمقابل. . . وتوصل الممنوعات إليهم. .».

- «لو قال غيرك هذا الكلام لبصقت فى وجهه. . .».

مال عليه «حسنين أبو زهرة» فى انفعال وهمس فى أذنه:

- «مباحث السجون ليست نائمة. . . افهم. . . لا تقامر بمستقبلك. .».

قهقه جاد الله، وقال وهو يجز على أسنانه:

«أعرف مجموعة من الأوساخ..».

- «قيل إنك شوهدت سكرانًا فى الطريق العام..».

- «هراء. كنت عائداً من المستشفى...».

- «يقال إن السجين محفوظ على علاقة وطيدة بك..».

دق قلب جاد الله من الخوف، تلعثم، وتأتأ، لكنه تمالك أعصابه، وقال فى سخرية ظاهرة:

- «تعلم أنه جاسوس لى على المسجونين. وقد درجنا كلنا على هذا الأسلوب..».

- «إنه خبيث. داهية... ساومنى ذات مرة..».

التفت إليه جاد الله فى دهشة وقد ازداد اضطرابه:

- «كيف؟».

- «أنت تعرف..».

هب «جاد الله» مهتاجًا وقال:

- «أنا واثق من نفسى. ولن يخدعنى سجين، كلهم أنذال».

تنهد حسنين أبو زهرة فى ارتياح وقال:

- «هذا ما أردت التأكد منه. . . إننى أحبك وأحرص عليك كزميل. . . وأدعو لك بالهداية دائمًا. . ».

وغادره «جاد الله» مسرعًا، الآن فهم سر نظرات حسنين إليه، ومتابعته لخطواته، هذا الرجل ذو حس غريب، إن حسنين رجل طيب، فتقدم فى العمر، وقد خط الشيب رأسه، عندما تحدق فى وجهه، تشعر أنك أمام رجل طيب مطمئن صابر، لا أثر للجشع أو الخوف أو التمرد فى عينيه، حاسم دون إيذاء، منضبط فى غير قسوة، كالساعة فى مواعيده وأعماله. يحترم نفسه ويحترم الرؤساء، والمساجين يثقون به، إنه نمط آخر غير باقى السجانين، إذا فرش سجادة الصلاة، والمشاكل التى تعترضه فى العمل قليلة، يعالجها بلطف ومهارة، ولهذا فهو لا يسبب أية متاعب للإدارة، يقولون: إن ابنه الأكبر تخرج فى كلية الحقوق، وابنته تدرس فى كلية الآداب، يقضى وقت فراغه فى المسجد، يصلى أو يستمع إلى الدروس، شديد الحرص على زيارة أهله وأقاربه فى الريف، لا يجامل فى حق، ولا يتهاون فى تنفيذ القانون، بالطريقة المناسبة التى يرتضيها ضميره. .

كان حسنين قلقًا، فهو يعرف تهور زميله، والوضع الحرج الذى أصبح فيه، وكان حسنين ينظر إلى هموم الناس وكأنها همومه الشخصية، شىء فى طبيعته ودمه، وإن كانت تسبب له المشاكل أحيانًا، ولهذا يعتبرونه فى «عزبة السجانين» العمدة. . لأنهم

يحكِّمونه فى مشاكلهم، يعرضون عليه قضاياهم، ويرضون فى امتنان بحكمه.

قال الأمباشى حسنين أبو زهرة للسجين محفوظ:

- «اسمع يا ولد.. أنا أعرفك..».

رد محفوظ مراوغًا:

- «مظلوم.. والله العظيم طول عمرى مظلوم يا حضرة الصول..».

- «لا تقسم.. أنا أعرفك..».

- «ربنا غفور رحيم...».

- «هى كلمة واحدة...».

- «تحت أمرك..».

- «دع «جاد الله» وشأنه.. فى رقبته كومة من العيال..».

قال محفوظ فى دهشة وهو يدق على صدره:

- «أنا استغفر الله.. أنا ساعده الأيمن.. اسأله».

سدد إليه نظرات حادة:

- «أنتم تسقطون به إلى الحضيض.. أعرف أنك همزة الوصل بينه وبين طلاب الممنوعات..».

تلفت محفوظ يمنه ويسره، وقال:

- «هذا اتهام خطير. . جاد الله أشرف سجان هنا. . حرام. . حرام يا حضرة الصول. . .».

هدر -[ردد صوته فى حنجرته]- حسنين فى ضيق:

- «اسمع. . إذا لم ترتدع فسأقذف بك إلى بعيد. . أنت تعرف الواحات. . إننا نرسل مجموعة إلى هناك كل ستة أشهر، هل فهمت؟. . .».

اختطف محفوظ يده، وأخذ يمطرها بقبلاته ودموعه، ثم انحنى على حذائه، وهو يتوسل:

- «أنا فى عرضك. . .». نحّى حسنين قدميه بعيداً، ونظر فى اشمئزاز، وهو يقول:

- «تعرف أنى لا أظلم أحداً. . . والإدارة تحترم رأيى. . وأنا لم أوجه إليك الاتهام إلا بعد أن تأكدت. . أتفهم؟؟ ليس بين المسجونين سرٌ يُصان. . وأنت واحد منهم. . أنت سوابق. . ودخلت هنا أكثر من مرة. . أعنى أنك خبير. . لا تراوغْ. .».

رفع محفوظ إليه عينين ضارعتين وقال:

- «أعترف. .».

- «أتعاهدنى على حماية الرجل المخدوع. .».

- «أعاهدك. . وهذه يدى. . ».

شعر بالارتياح، فأشار إلى محفوظ بالانصراف، كان لا بد أن ينقذ زميله من اللعبة الخطرة المدمرة، إنها لابد أن تنكشف يومًا ما -هكذا علمته تجارب السنين، لكن الشيء الذى آلمه وحزّ فى نفسه، وهو بُعد جاد الله عنه، حتى لكأنها القطيعة، لكن حسنين لم ييأس إنه يقوم بعمله لوجه الله.

ذهب حسنين لزيارة جاد الله، استقبلته ميمونة بترحاب، إنها تعرف قدره الكبير، لكن جاد الله بدأ على وجهه الضيق، كان اللقاء فاترًا، وأدرك جاد الله لأول وهلة أن المراوغة والإنكار لن تجديا مع حسنين، لهذا جلس منكس الرأس، وأخذ يرتشف الشاى فى شرود، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث فى حرج وتوتر ويحومان حول الموضوع الرئيسى دون أن يدخلا فيه، وكم كانت دهشة حسنين حينما سمعه يقول فجأة:

- «أنا لا أفعل إلا ما يفعله الآخرون. . ».

- «دعك من الآخرين. . ».

- «أتدرى عما أتكلم؟».

- «أفهم ما ترمى إليه. . إنك تحاول أن تبرر أخطاءك». وأخذ جاد الله يتحدث بصراحة، عن غلاء الأسعار، وقلة المرتب، والظلم البيِّن الذى يكبِّل حياته. . وحياة الناس. . ولذلك فإن

الجميع يسرقون ويرتشون حتى الوزراء وعلية القوم يفعلون ذلك، ولا وجود للشرف في واقع الحياة، إنها مجرد كلمة يرددها الناس، يتشدقون بها في المذياع والصحف والخطب، ومن يصدق هذا الهراء يموت جوعًا، وقال حسنين:

- «أنا لم أمت جوعًا . . ».

- «لأنك رجل بلا طموح . . ».

- «أنت واهم . . طموحي على قدر طاقتي . . ».

- «وماذا تركت لأبنائك يا حسنين . . . ».

- «تركت لهم الله ورسوله . . ».

- «أما سمعت . . السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة . . ».

- «بل تمطر رحمة وإيمانًا وأملاً . . ».

- «كلمات لا تُسمن ولا تغني من جوع . . . ».

- «لكنها رأس مالي . . . ».

- «جنة من الوهم . . . ».

أشاح حسنين بوجهه، واستغفر الله ثم دعا له بالهداية، وأخذ يتمتم، حينما أنظر إلى ولدي وهو حامل أوراقه، وذاهب إلى مكتب أحد المحامين الكبار للتدريب، اقرأ في عينيه الأمل والحب، ويأتي يقبل يدي فأحتضنه، وأدعو له بالستر، وحينما تهل عليّ ابنتي وهي

عائدة مرهقة من رحلتها الطويلة إلى كلية الآداب، أستقبلها بين ذراعى، وكأنى ظامئ ينهل من الماء الزلال بعد رحلة شاقة فى الصحراء.. أنا لم أدخر مليمًا.. لكنى أشعر أننى أملك كنوز الدنيا.. تلك هى السعادة يا جاد الله، المشوار كان طويلاً ومرهقًا.. لكن ها أنت ترى الاطمئنان الذى أنعم به... ومهما صليت وقرأت القرآن وتعبدت فلن أوفى الله حقه..

ترقرقت الدموع فى عينى «جاد الله»، لكنه مسحها فى عنف، لا يصح أن يستسلم، التراجع فى رأيه مشين، لقد سفك الدماء، وقتل وسرق، ومارس ألوان الخطايا.. وأصبح قاب قوسين أو أدنى من جنى الثمار.. أيمكن أن يتراجع فى آخر الشوط، ويخسر كل شىء ؟ هذا مستحيل..

وأخذ يصرخ:

- «مستحيل.. مستحيل... لقد فات الآوان...».

رد حسنين أبو زهرة فى هدوء:

- «تلك وسوسة الشيطان يا جاد الله.. أنا أعرفه..».

- «تعرفه؟».

- «نعم...».

- «طالما اعترض طريقى يا جاد الله».

- «وما شكله؟».

قهقه حسنين وأردف:

- «شكلى.. وشكلك.. وأشكال أخرى.. المصيبة أنه يلبس أثوابًا شتى، ويظهر على صور عديدة..».

- «كيف؟».

رفع عينيه إلى سقف الغرفة، كانت يده تعبث بمسبحة طويلة صفراء، ورأسه يهتز فى انتظام كمن يهوى فى حلقة ذكر، واغرورقت عيناه، وهو يقول بصوت خفيض: «قد يظهر على صورة امرأة بارعة الجمال، أو صديق ناعم الملمس، حسن الحديث، وقور السمت، أو سيد مهاب مفتون ببأسه وثرائه، أو قصر كبير، أو بستان جميل، أو على هيئة بقرة. جواد.. سيارة.. تاج مرصع بالجواهر.. هكذا قال شيخى يا جاد إننى أحفظ كلماته عن ظهر قلب، وشيخى عهدته لا يكذب أبدًا، فهو طاهر مطهر.. عرف الله، فصغرت فى عينيه الدنيا..».

أشعل جاد الله سيجارة، وجذب منها نفسًا عميقًا، وتمتم: أكان شيخك يقول ذلك، فماذا تقول أنت؟

إن شيخك قد غابت عنه الحقيقة المرة.. إن معنى ذلك الكلام أن الدنيا كلها شياطين، وأن الشيطان الأكبر يحكمهم، ولا مجال لأحد غيره.. أين الملائكة يا حسنين؟؟ الإنسان والحيوان والجماد

والبنات شياطين. . أليس هذا مضحكًا؟ خذ يا رجل سيجارة وأبعد عن نفسك هذه الأفكار. .

استعاذ حسنين وحوقل. . ورفع السيجارة برفق معتذرًا وبدأ له أنه أمام رجل غارق فى الحيرة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، أو أنه قد تعرض لمس من الجنون، فغطى على سمعه وبصره، وأربك عقله، هى حالة مستعصية إذن، إن ما يعرفه عن جاد الله محدود للغاية، فهو يهرب الممنوعات ويتقاضى أجرًا، أى يخرق قانون السجون، حتى يحقق نفعًا ماديًا، ثم إنه يعرف أن ماضيه فى السجون الحربية يدعو للأسف والحسرة؛ لأن جاد الله نفسه كثيرًا ما يتحدث مفتخرًا عن ذلك، دون أن يبدو عليه ندم، وزملاؤه يستمعون إلى حكاياته الدامية بين مصدق ومكذب، لكنهم لا يفتأون ينادونه بالوحش، إشارة إلى ما يؤكده هو عن نفسه، وكثيرًا ما لعب دور الدساس ومثير الفتن بين أقرانه، وهو أمر يثير الاشمئزاز حتى تجنبه غالبيتهم.

هذا كل ما يعرفه حسنين عنه، ومع ذلك فإن حسنين يؤمن بأن الإنسان عرضة للخطأ والانحراف، وقد تتجلى رحمة الله على بعض عباده الآثمين، فيعودوا إلى الطاعة، وينيبوا ويتوبوا، وشيخه يقول له دائمًا: «يا حسنين أنت تعيش وسط عتاة المجرمين. . فكن داعية خير وإصلاح بينهم، وحاول أن تزين لهم طريق التوبة. . يا حسنين لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير من الدنيا وما فيها. .».

ظل حسنين صامتًا بضع دقائق وهو يفكر، وأخيرًا أمسك بيد جاد الله في حرارة وقوة:

- «قم معي يا جاد الله..».

- «إلى أين؟».

- «قم.. ولا تسألني..».

- «طريقي غير طريقك يا حسنين..»

هتف حسنين كمجذوب قائلاً:

- «قم..».

وجذبه في إصرار وسارا في الطريق العام، كان الليل باردًا، وعدد المارة قليلاً، غالبية سكان الحي هربوا من البرودة إلى دفء البيوت المزدحمة، وكثير من أعمدة النور لمباتها محترقة أو محطمة، لذا فالضوء شحيح، السيارات تمر وتثير الغبار، جاد الله يتطوح إلى جواره دون اكتراث، فليذهب.. لا بأس.. إنه يتعلم من كل شيء، ليس من السهل عليه أن يغير خططه وأفكاره، إن فلسفته خلاصة سنين القهر والضعة والهوان، ومبادئه لم يتعلمها من الكتب، أو يتلقفها من أفواه الوعاظ، هو الذي صنع تلك المبادئ وتشربها، ذات يوم أمسك بيد بنت الباشا وهي تترجل عن فرسها كي يحميها من السقوط، كانت يدها لدنة مثيرة، ونسي نفسه

واستبقى يدها فترة أطول مما يجب، رمته بنظرة احتقار. ثم صفعته وهى تقول: «لو فعلتها ثانية أيها الحمار لرميت بك فى الشارع» قالت له (حمار)، ليتها قالت «حصان» لكان الأمر أخف على نفسه!! إنه يبتسم لهذه الذكرى وهو يسير إلى جوار حسنين.. حسنين الذى يكلمه فى سذاجة عن الجنة ونعيمها وطيب ريحها، وعن جهنم وعذابها، وسوء مآلها، وطول عنائها.. وكانت كلمات حسنين لا تثير فى جاد الله أدنى رغبة فى السماع، ولا تحرك فى نفسه أقل انفعال، وفى سخرية علق جاد الله قائلاً:

- «لا تحدثنى عن النار والجنة، فأنا رأيتهما..»

- «فى المنام؟».

- «فى الحقيقة يا حسنين...».

- «هل جننت؟؟..».

- «بل أنا فى منتهى العقل والرزانة.. أنا عندى جحيم فى بيتى جحيم خاص.. وجحيم فى السجن.. حيث الذل والفقر يكون الجحيم.. دعك من شيخك الجليل، وقل له: إن الجنة والنعيم هنا على أرض الله.. كثيرون ينعمون بالمال والجاه والحب.. تلك هى الجنة..».

توقف حسنين عن المسير، واجه جاد الله، أمسك بكتفيه وهدر:

- «أيهما الملعون.. لقد أفسد الشيوعيون تفكيرك..».

قهقه كشيطان، وأنزل يدى حسنين، واستمر فى سيره وهو يقول:

- «لم أتعلم من الشيوعيين.. كان كلامهم غير مفهوم بالنسبة لى، ولم أحصل شيئًا من الإخوان المسلمين؛ لأنهم يريدون مجتمعًا من الصحابة.. كرهت الباشاوات؛ لأنهم استمتعوا بماضيهم أكثر من اللازم.. كرهت الجميع.. لكنى كنت أستفيد منهم ماديًا.. أخرج لهم الخطابات، وآتى بالردود، وأنقل لهم الممنوعات مقابل أجر كبير.. وفى ساحة التعذيب أضربهم جميعًا.. أوامر يا حسنين.. وأنت تعرف الأوامر أنا لا أتعلم من أحد... أنا جامعة...».

دفعه حسنين بقبضته القوية فى صدره قائلاً:

- «جاتك خيبة..».

قهقه جاد الله، وامتد الطريق، والضوء يخبو، والظلام يشتد طغيانه وأطراف المزارع تبدو قريبة، وأشباح الأشجار الضخمة تبدو كهلاً معتمة، والسماء ملبدة بغيوم مكظومة لا تبعث بقطرة ماء، وصوت «أم كلثوم» يتناهى إلى الأسماع واهنًا آهاته الطويلة عن الهجران والحرمان والأحزان، وهدير المنتشين ينطلق عند نهاية كل مقطع، هتاف فى صالات الغناء وملاعب الكرة، والاجتماعات السياسية، ومدارس الأولاد، ورأس جاد الله يدور.. الهتافات من كل نوع تتسابق إلى رأسه، ورأسه يكاد ينفجر.. هو يعرف نفسه، لا بد أن يدس فى فمه قطعة من «الأفيون»، إنه العلاج

الساحر، تعلمه من المسجونين، إنه يشفى آلام الرأس، وأمغاص الكلى، ويخفف من القلق، تسللت يده إلى جيبه، أخرج ورقة «سلفان» صغيرة فى الظلام، ثم قربها من فمه بحرص، مخافة أن تسقط فى العتمة فتضيع، أخذ يمتصها بلذة، دون أن ينتبه حسنين لما يجرى، وبعد دقائق من السير صامتين، هتف جاد الله :

- «ليلتك أنس يا حسنين . . » .

لم يرد عليه، كانت المسبحة فى يمينه، وكان يردد بعض الأذكار التى وردت عن رسوله الله، لكن جاد الله قال فى إلحاح :

- «لماذا لا ترد؟» .

وجاءه صوت حسنين المستمر فى سيره بجد وهو يردد :

- «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ... » .

«وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد» .

«حسبنا الله نعم ونعم الوكيل . . » .

«يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف . . . » .

أمسك به جاد الله، وقال :

- «لقد تعبت . . وأريد أن أعود . . » .

-«امض وإلا . . . » .

***

[٥]

كان المكان يوحى بالسكينة والوقار، والجالسون يتحلقون فى ثيابهم البيضاء النظيفة، ووجوههم تفيض بالإشراق والاطمئنان، لم يستطع «جاد الله» أن يميز بينهم فى البداية، بدوا وكأنهم نسخ مكررة من كتاب واحد، لكنه عندما أطال النظر، استطاع أن يدرك الفروق فى السحنات والعمر ودرجة الإشراق.

همس وهو يخلع حذاءه:

- «من هؤلاء يا حسنين؟»

لا تسألنى عن شىء..

وألقى السلام، وقصد لتوه إلى رجل يتوسط الجالسين، وحاول حسنين أن يقبل يده، فانتزعها الرجل برفق، وتبعه جاد الله كالمسحور، وفعل مثلما فعل، واتخذا مكانهما منتظمين فى عقد الحلقة، وهمس جاد الله:

- «ماذا سنفعل؟؟».

- «مثلما يفعلون».

- «أريد أن أعرف . . ».

- «الصبر زينة الإيمان . . . »

- «لكنى رجل ملوث . . أنت تعرف . . . »

- «الله يحب التوابين الأوابين يا جاد الله . . »

شعر جاد الله كأنه يختنق، ما الذى أتى به إلى هنا، ليته رفض منذ البداية، ما له ولهذه الطقوس كلها، حسنين أيها الساذج هل تظن أن هذا الأسلوب ينفع معى؟ إنك طيب القلب لدرجة السذاجة، إن حقدى يحرق مدينة بأسرها فكيف بهذا المجتمع الصغير؟ ليكن كأنها مجرد تجربة . . مسرحية من مسرحيات الحياة . . . ألم يقل يوسف وهبى «هيه . . الدنيا مسرح كبير» لقد أغلقت نوافذ قلبى منذ زمن بعيد، وفى داخلى ظلام دامس، ، ولن يبدده إلا العدل . . لكن أين العدل فى هذه الدنيا؟ إنه خرافة . . . أنا أعرف يا حسنين أن الانتصار لا تحققه إلا مخالب الوحوش . . نعم الانتصار . . إننى أتذكر الآن بالذات إنتصار . . حتى اسمها يلهب كيانى . . . أعطتنى متعة لم أشعر بها قط فى حياتى الجرداء . . كانت مثلى تمامًا لا تعبأ بشىء . . جسور . . قوية، تفعل ما يحلو لها دون خوف، لم ألحظ بادرة من ندم أو تردد تخالجها لكأنها خلقت لى وخلقت لها، مسكين يا حسنين ما زلت تأمل فى

إصلاحى . . المحرك خرب . . فكيف تمشى العربة . . عش فى جنتك الموعودة يا حسنين يا ملك الوهم، ودعنى فى شأنى . . ليس هذا مكانى اتركنى أذهب إلى إنتصار . . . كيف يتواءم الوحش مع هذه الحملان الوديعة . . .

أيها المخادعون إن دموع الأطهار كلها فى هذه الدنيا لن تمسح خطاياى . . وتوقف جاد الله عند هذا الحد من الأفكار، ثم أخذ يزحف إلى الخلف فى بطء شديد، حتى خرج عن الحلقة معتزمًا الخروج . . وتلبسه الخوف حينما سمع صوتًا يناديه باسمه فجأة:

- «مكانك يا جاد الله . . ».

ونظر، وكان المتحدث شيخهم الكبير (البحيرى) فعل ذلك دون أن يرفع رأسه، تُرى كيف عرف اسمه؟ وكيف رآه وهو يحاول الإفلات؟ أيكون حسنين قد أخبر شيخه بذلك من قبل؟ ربما . . وأشار الشيخ بحيرى بيده ناحية اليمين، فانبعث صوت المنشد نديًا، رقراقًا:

يا راحلين إلى «منًى» بقيادى . .

شَوّقْتُموا يوم الرحيل فؤادى . .

سرتمْ، وسار دليلكم يا وحشتى . .

أرّقنى صوت الحادى . .

فإذا وصلتم سالمين فبلّغوا . .

منى السلام إلى النبى الهادى . .

رفت نسمة رخية، وتهامس الجو بأنغام شجية، ونسى جاد الله من يكون، وذاب فى اللحن الساجى المؤثر، وكادت تسقط من عينيه دمعة، لكنه هز رأسه كمن يفيق من حلم ليته لا يفيق، وهو يقاوم الذوبان الطاغى كمن يصر على الغرق فيرفض الأيدى التى تمتد إليه لنجدته.. لكنه سمع صوت حسنين:

- «شيخنا سيؤدى فريضة الحج هذا العام.. وبعضنا معه..».

رد جاد الله هامسًا:

- «ليتهم ألغوا لقب «الحاج» مع إلغاء باقى الألقاب..».

- «ليس الأمر لقبًا يا مجنون..».

- «ماذا إذن؟».

- «إنها رحلة عشق للذات العلية.. هكذا يقول شيخنا.. تذهب بخطاياك، وتعود كما ولدتك أمك..».

ترنح جاد الله وقال:

- «هل يصح أن أحج من مالى الذى تعرفه..».

- «إن الله طيب، لا يقبل إلا طيبًا.. هكذا يحدثنى شيخى..».

- «وأين لى من مال الحلال؟ إذن فلن أحج أبدًا..»

تنحنح الشيخ وبسمل وحمد الله، ثم أخذ يحدثهم عن الدنيا ومفاتنها ومغرياتها، وعن التقوى وأثرها وعن صدق النية،

وسلامة القصد وإتقان العمل والاجتهاد فى العبادة، والسعى للرزق وأشياء كثيرة أخرى، وفى نهاية حديثه قال: إن الدنيا سجن المؤمن، وكم كانت دهشة الحاضرين حينما سمعوا ذلك الوافد الجديد، جاد الله يقول:

- «نحن فى سجن دائم أيها الشيخ.. ولا نخرج منه آخر النهار إلا لننام، كى نعود فى اليوم التالى..»

وساد الصمت، كان الشيخ يرمقه من بعيد بنظرات ثاقبة، وقال الشيخ بنبرات واضحة:

- «فرق كبير بين أن تعيش فى السجن وبين أن يعيش السجن فيك..».

صاح الجالسون بصوت منفعل:

- «الله أكبر..».

قال جاد الله:

- «لم أفهم..»

- «إن فوق قلبك تلالاً من الخوف...».

- «لم يقل أحد قط إنى جبان..».

- «ولم يقل أحد إنك شجاع..».

تفكر جاد الله، فعلاً إنهم يرمونه بالقسوة والاستهتار وعدم اللامبالاة، ويقولون إنه مغامر، لا يحجم عند ارتكاب الحماقات، لديه جرأة عجيبة فى اقتحام المخاطر، وكسر القوانين، أليست هذه هى الشجاعة؟ وهنا تدخل حسنين قائلاً:

- «سيدى وشيخى... اعذره.. إنه لا يعرف الحقيقة..»

وقال الشيخ موجهًا كلامه لجاد الله:

- «أى بنى.. قد يأتى أحدنا فعلاً طائشًا، ويسميه شجاعة، وقد يرمى بنفسه فى المهالك، ويعتبر ذلك بطولة، فلماذا لا تكون تلك الأعمال التى تتسم فى ظاهرها بالشجاعة، منبعثة من خوف أكبر، أو تحركت بدافع الأنانية والطمع؟».

ارتجف جسده، لم يدر جاد الله بماذا يعلق، حاول أن ينطق فخانه لسانه، أخذ يرمش بانفعال، ويعبث بأصابعه دون هدف، فعاجله الشيخ قائلاً:

- «الدنيا هروب كبير..».

قال جاد الله:

- «لا أفهم..».

- «هذا يهرب من المسئولية، وذاك يهرب من الحقيقة، وآخر يهرب من مواجهة نفسه.. ورابع يهرب من الخطر، ألا وإن أبشع هروب هو الهروب من الصدق..».

قال جاد الله كمن يتعلق بقشة:

- «أنا أواجه الخطر..».

- «من منطلق الخوف على الذات..».

ثم ابتسم الشيخ فى براءة وعطف واستطرد:

- «تلقى بنفسك فى جحيم الموت... لتحيا..».

- «أموت لأحيا؟ كيف؟».

- «أنت تعرف..».

همس حسنين فى أذنه قائلاً:

- «اصمت يا جاد الله... إن شيخنا مكشوف عنه الحجاب..».

هتف الشيخ فى امتعاض:

- «لا يا حسنين.. استغفر ربك.. أنا رجل مثلكم لا أعرف شيئًا عن غيب الله.. لكنى مسافر يبحث عن الحقيقة وفق نواميس الله، وسنن الحياة التى وضعها. أحمل شمعة صغيرة، وأتجول بها فى خفايا النفس، لعلى أعرف أمرًا يساعدنى فى الفهم.. مات ابنى فجأة ولم أكن أعرف أنه سيموت.. وشرد ولدى عنى منحرفًا، فبكيت كما تبكون.. لم أبك لخيبة أملى فيه.. ولكن إشفاقًا على إنسان ضلّ.. كنت أشعر بمَا شعر به نوح عليه السلام نحو ولده...».

فرح جاد الله لهذه الكلمات، وعلق قائلاً :

- «أنا أقول ذلك . . نحن نفعل ما نفعل بأمر الله . . ولا يمكن أن نهرب من قدر الله . . ».

مسح الشيخ دمعة انحدرت على خده وقال :

- «بل نفر من قدر الله . . إلى قدر الله . . كما قال عمر . . ».

قال جاد الله وقد حاصرته الأفكار :

- «ماذا نفعل؟ العالم كله فساد فى فساد . . ».

قال الشيخ باطمئنان كبير :

- «عُد إلى نفسك . . وافتح كتاب الله . . وأغرق همومك فى عمل مفيد . . ».

ودق الشيخ بيديه ونادى : «الله . . الله . . الله» وكان ترديد لفظ الجلالة متوافقًا مع ضربات كفيه، وشاركه الجميع فى الذكر، كان رأسه يهتز مع النغمات يمنة ويسرة، وعيناه مغمضتان، ونظر جاد الله حواليه، فرآهم يهتزون وينصتون بإيقاع موحد، ووجد نفسه يغمض عينيه ويفعل مثلما يفعلون . .

فى طريق العودة، شعر جاد الله بسخونة فى رأسه برغم برودة الجو، كان طوفان الأفكار يهدر فى داخله، اختلطت الحدود فى رأسه بين كل المتناقضات، لم تزده الزيارة الأخيرة إلا حيرة، ما هذا

العالم الغريب الذى من حوله؟ قوم يعبدون الله فى إيمان ويقين، وقوم يسرقون وينهبون ويقتلون دون أن تهتز فيهم شعرة من خوف الله. ومسجونون يغوصون فى الإثم دون مبالاة، وضباط يشمخون بأنوفهم وكأنهم آلهة يأمرون فيطاعون، وحكام لا شريك لهم فى حكمهم لا يسألهم أحد عما يفعلون، ويتحدثون عن الحرية والحب والإخاء والمساواة، وشباب يموتون غيلة، من أجل موقف أو رأى، لو كنت فى موقفهم لضحيت بكل شىء حتى أعيش. . أن تعيش هذا هو المهم، وبعدها تستطيع أن تتصرف كما يحلو لك، وتحاول أن تتغلب على كل الصعاب، وأن تغير من مبادئك وخطتك مثلما تهوى، المهم ألا تموت، وأن تنعم بحياتك، لا تستطيع قوة فى الأرض أن تقنعنى بأننى جئت إلى هذه الدنيا لكى أضحى أو أتعذب أو أعانى، من العدل أن أحقق ما أريد أو قدرًا لا بأس به مما أريد، أو على الأقل أعيش حياة مقبولة. . ليقل الشيخ بحيرى ما يشاء، فلو عضه الجوع، وأرّقه الذل مثلى لكان له موقف آخر غير موقفه الحالى. . لقد سرت فى طريقى الخاص منذ زمن بعيد. . قتلت. . وفسقت. . وسرقت فماذا يعنى؟ لم يبقَ إلا خطوة واحدة حتى أحقق آمالى ومن يدرى بعدها ماذا يحدث، قد ألبس عمامة، وأطلق لحيتى، وانخرط فى سلك العابدين الزاهدين، الزهد له مذاق خاص عندما يملك الإنسان كل شىء، لكن الزهد مهزلة كبرى حينما يكون الزاهد فقيرًا عاريًا جائعًا، لا يملك من حطام الدنيا شيئًا.

- «قل لى يا حسنين، هل الشيخ بحيرى متفرغ للعبادة تمامًا؟».

- «من قال ذلك؟ ألا تعلم يا جاد الله أنه مدير منطقة «حلوان» التعليمية؟ ثم إن هؤلاء الإخوان منهم المهندس.. والمدرس.. والطبيب.. والفراش.. والتاجر..».

قاطعه جاد الله قائلاً:

- «والسجان..».

- «نعم.. كلنا إخوة..».

- «إذن فهو غنى..».

- «الغنى غنى النفس يا جاد الله.... إنه يغدق بلا حساب، يساعد الفقراء، وقد أنشأ مكتبًا لتحفيظ القرآن، وبنى دارًا صغيرة فى «المعادى» لتعليم اليتامى بعض الحِرَف.. ينفق على بعض طلبة الجامعة والأزهر..».

قال جاد الله فى خبث:

- «هل تدفعون بعض الاشتراكات الشهرية أو الهبات..».

- «تأدب يا جاد الله.. إنه يعطى ولا يأخذ.. وإذا أعطى يقول: إنه مال الله».

قال مازحًا:

- «لماذا لا يقرضنى ألف جنيه؟».

- «إنه يعطى المستحقين يا جاد الله . . » .

- «سؤال يا حسنين . . » .

- «قل . . » .

- «أليس له نشاط سياسى؟ . . » .

- «إنه معلم . . قدوة للخير . . أتفهم؟» .

صمت جاد الله برهة ثم قال فى برود عجيب :

- «سأبلغ عنه «المباحث العامة» . . إنه خطر على أمن الدولة . . » .

- «هل جننت يا جاد الله . . » .

- «شيخكم يتحدث كثيراً عن الله والقرآن . . وهى شعارات تختلف عن شعارات الحكومة . . حرية ووحدة اشتراكية . . » .

دفعه حسنين فى ظهره بغلظة وهو يقول :

- «أيها العابث الملعون . . كيف تجرؤ؟» .

- «الواجب الوطنى لا يعرف العواطف . . » .

- «اصمت وإلا احترقت . . » .

- «سأصمت بشرط . . » .

- «ما هو؟» .

- «ألا تأخـذنى إليـه مـرة أخـرى . . هذه واحـدة . . وأن تتـركنى وشأنى فى السجن . . هذه هى الثانية . . » .

«وألا تتـعـرض لمحفـوظ بأى أذى أو تهـديد . . تلك شـروطى الثلاثة . . وإلا أثرت عليكم الدنيا ورميتكم بكل شبهـة ممكنة . . أنت تعلم أنى بلا ضمير . . وأستطيع أن أفعلها . . جاد الله ليس فى قلبه ذرة من رحمة . . » .

نظر إليـه حـسنين فى أسى ، تمنى فى تلك اللحظة أن ينشب أظافره فى عنقه ، ويظل يضغط حتى يزهق أنفاسه ، تمنى أن ينهشه بأسنانه ، أيمكن أن يكون (جاد الله) إنسانًا؟ مستحيل إنه لم يرَ فى حياته شبيهًا له ، فليستغفر حسنين ربه ، وليتمالك أعصابه ، وينسى كل مـا سمعه ، ويدعو له بالهداية . . من يدرى؟ سبحان مغير الأحوال . . .

وحث حسنين خطاه مسرعًا صوب بيته ، تاركًا جاد الله يتطوح فى بطء ، ويسير على غير هدى ، وهو يردد فى سخرية : (الله يا بلادنا الله . . .) ولم تستطع الأغنية التى يرددها أن تذهب عنه قلقه وأحزانه . . كان يطلقها من اللسان ، وقلبه ينبض بقوة من جراء ما يفكر فيه ، لقد رأى الكثيرين من نزلاء السجون يعضون بنان الندم بعد فوات الأوان ، وصدور الأحكام ، ويتمنون أن يرجع الزمان ، فلا يقعون فيما وقعوا فيه من أخطاء ، هو يعرف ذلك عن تجربة . .

الذى مضى لن يعود. . لكنه غير هؤلاء جميعًا. . إنه يمشى بخطوات محسوبة، ويتخذ لكل أمر أهبته، ولن يخلف وراءه أثرًا أو خيطًا رفيعًا يوصل الباحثين إليه، إنه ليس غبيًا، لقد تعلم الكثير من حماقات الآخرين وأخطائهم، فلا خوف إذن. . الخوف من شيمة الضعفاء والمترددين والخانعين. . فليسقط الشيخ بحيرى. . وليسقط حسنين، وليسقط المدير الكبير. . وأخذ جاد الله يقهقه فيما يشبه الجنون. . .





ذهبت «إنتصار» إلى الليمان فى زيادة خاصة لمحفوظ، مشت تتبختر فى ثقة لاحد لها، جمالها الوحشى يلفت الأنظار، جلست تنتظر وسط جمع من النسوة والأطفال والرجال، قدموا من شتى الأنحاء لزيارة المسجونين، إنهم خليط عجيب من الزائرين فيهم الصعيدى والبحراوى، وفيهم المتعلم الذى يلبس بدلة أنيقة، والأمى الذى يرتدى جلبابًا فضفاضًا، والنسوة فى غالبيتهن غارقات فى الملابس السوداء، والدموع تتساقط من عيون بعضهن، وأصوات الزائرين تعلو وتنخفض، كل يتحدث عن سجينه، فهذا قد أخذ بثأره، وثان قد أدين غدرًا بالاتجار فى المخدرات، وثالث من السياسيين، ورابع حكم عليه فى قضية اختلاس، والتعليقات التى تنتشر هنا وهناك تخرج منها بمعنى غريب، فالجميع يتحدثون عن الظلم والمكائد والإيقاع بالأبرياء، الجميع فى نظر أقربائهم الزائرين مظلومون، وهناك ما يشبه الإجماع بأن أخطر هذه القضايا كلها هى القضايا السياسية، امرأة تقول:

- «ما لنا وللسياسة!! مخطئ من يتصدى للحكومة».

وتضيف أخرى:

- «من ينظر فوق يتعب، فلنرضَ بما نحن فيه».

وتثور ثالثة قائلة:

- «حكومة فاجرة لا تستحيى..».

ويرد شاب متين البنيان، كثف الشارب قائلاً:

- «طائفتان مظلومتان فى هذه البلد.. طائفة المخدرات.. والإخوان..».

يظل الحوار بين الزائرين يدور بلا نهاية، تقطعه شهقات البكاء، واللعنات الساخطة، ودموع تتساقط فى صمت، أما إنتصار فهى تتسلى بما يجرى دون انفعال، إنها تبتسم وتدندن بأغنية شعبية: «عينى بترف يا حبة عينى..» ويأتى جاويش الزيارة ويقرأ من ورقة فى يده بعض الأسماء، ثم يأخذها فى طابور إلى الداخل.. ليزوروا ذويهم.. جلست «إنتصار» إلى جوار «محفوظ» فى غرفة الضابط، أخرجت له دجاجة مشوية وكمية من «الأرز المحمّر» وقطعة لحم كبيرة، أخذ يأكل فى شهية لافتة للنظر ويتكلم أثناء الأكل «لك وحشة يا إنتصار.. متى تعود أيامنا الحلوة.. لعنة الله على السجن.. أحيانًا أفكر فى الانتحار كحل نهائى لعذابى..

لكنى أتماسك وأقول الصبر يا محفوظ . . كله يهون . . يهون من أجل عيونك يا إنتصار ويضمها إليه فى عنف، فتبتسم فى خجل مصطنع وهى تنظر إلى الضابط الجالس خلف مكتبه، ويخرج الضابط لقضاء شأن من شئونه، وهو يقول محذراً :

- «احذرا الممنوعات . . سوف أقوم بتفتيشك بدقة بعد الزيارة يا محفوظ . . أنا أعرفك . . شيطان . . » .

وتقول إنتصار فى دلال وهى تبتسم :

- «محفوظ؟ إنه طيب القلب يا بك . مسكين ولا يخون أبدًا . . » .

ويلتفت إليها الضابط قائلاً وهو يندفع إلى الخارج :

- «إنه ملعون . . الطيبة أنت . . والمسكينة أنت . . » .

وما إن يخرج الضابط حتى يقول محفوظ هامسًا :

- «أريد أن أطمئن على الموضوع . . » .

- الأمور تمشى فى طريقها المرسوم . . لا تخف . . لقد كانت ضربة معلم . . الأمباشى «جاد الله» مناسب تمامًا . . يا لأفكارك الجهنمية . . كيف أوقعت به؟؟ فكرة ممتازة . . . إن بدلته الصفراء تبعد عنه أية شبهة . . . لا يتصور أحد أن يقوم رجل حكومة . . رجل نظام بالتزييف . . ثم إنه كالغول . . طمّاع لأقصى حدود الطمع . . يريد المال بأى شكل . . بأقصى سرعة .

- «وهل تسلم ماكينة تزييف النقود؟؟».

- «ليس بعد.. لم تزل فى مخبئها الأمين منذ فترة، كان لا بد أن نتوقف لبضعة شهور، حتى تيأس المراقبة وتختفى.. لقد غيرت مسكنى، وقطعت علاقتى بمعظم الأصحاب القدامى.. كما أمرت.. لا بد أن نبدأ من جديد.. وبأسلوب جديد».

كان محفوظ قلقًا، إنه يخاف أن يستولى «جاد الله» على ماكينة الطباعة نهائيًا، ويحتفظ بها لنفسه، ويخاف أيضًا من جشع «جاد الله» فقد يندفع فى إغراق السوق بالأوراق المالية الزائفة، فيلفت الأنظار ويحدث ما لا تحمد عقباه، وفى هذه الحالة، ستستولى الحكومة على الماكينة، وينقطع المال إلى أن يخرج محفوظ، لكن إنتصار طمأنته وأكدت له أنها ستوثق علاقتها بجاد الله، وستتردد على بيته كثيرًا، وتراقب حركاته وسكناته، وستحدد كل أسبوع الكمية المطلوب طبعها، وطريقة ترويجها، فى طول القاهرة وعرضها، بل وخارج القاهرة أيضًا، وسيكون لها شبكة توزيع ماهرة، وأسلوب خاص بها، بل ولن تنزل الأوراق المالية إلا فى أوقات معينة، وقالت إنتصار وهى تقرصه فى خده مداعبة:

- «أنا خبيرة.. فكن واثقًا..».

- «لكنى أخاف عليك.. تعرفين كم أحبك..».

- «تأكـد أن الرقـابة لن تمسك بى أبدًا. . ليس كل الطيـر يؤكل لحمه. .».

- «أعرف لحمك مر يا إنتصار. .».

- «لا. . حرّاق كالشطة. .».

- «أيتها الملعونة. .».

دخل الضابط فجأة وقال:

- «انتهت الزيارة. .».

قال محفوظ لإنتصار:

- «ليتنا نبقى هكذا طول العمر. .».

- «وما الفائدة؟ العيون حولنا من كل جانب. .».

- «أنا لا أرى إلا أنت. . العـالـم كله ليس فـيـه سـوى وجـهك الجميل. . ألا تصدقين؟؟».

- «لو كنت صادقًا لتزوجتنى. .».

- «اخفضى صوتك. . الجميع يعتقدون أنك زوجتى. .».

- «يا حسرة. . أنا زوجة لكل من هب ودب. . أنا اشتراكية. .».

وقهقه محفوظ، وضحكت إنتصار. . ودق الضابط بقدمه الثقيلة على أرض الغرفة، فجمعت أشياءها، وبقايا الطعام،

واستأذنت الضابط فى أن تعطى لمحفوظ علبة سجائر، فقال الضابط:

- «فلأفحصها أولاً..».

وفتحها الضابط وأخذ يمعن النظر فيها سيجارة سيجارة، ويتشممها ثم قذف بها إلى محفوظ قائلاً:

- «انتظر.. واذهبى أنت..».

مضت عبر ممر السجن المؤدى إلى الباب كأميرة، كانت تتدفق نشاطًا وحيوية، وعيون المسجونين الذين ينظفون الفناء ويخدمون فى المكاتب ترمقها فى اشتهاء وحرمان صامت، وتشجع أحدهم قائلاً فى صوت كالفحيح:

- «يا خسارة يا أولاد.. لقد ضاع العمر هباءً..»

وأخذ يدندن بصوت أجش:

دوبنى دوب يا هوا دوبنى دوب

يا ما نفسى أتوب يا هوا

يا ما نفسى أتوب

علق زميل له وهو يكتم ضحكاته:

- «لا فرق بين صوتك ونباح كلب المأمور..».

ولم يكد ينتهى من تعليقه، حتى فوجئ بصفعة قوية ترن على قفاه، فالتفت فإذا بالأمباشى جاد الله يرمقه بنظرات نارية ويقول:

- «اشتغل يا بهيم..».

- «أمرك يا حضرة الصول..».

- «لا أعرف لماذا خلق الله أمثالكم..».

- «كى تجد من تضربه على قفاه..».

بعد أن خرجت إنتصار من السجن، جلست قرب مقهى صغير تشرب الشاى وتقضم شطيرة صغيرة من الخبز المحشو بالبيض، وما إن خف الزحام حتى رأت «جاد الله» قادمًا يتلفت، أشار إليها من بعيد، ثم مشى فى طريقه مبتعدًا عن السجن، ومشت خلفه يفصلها عنه بضعة أمتار، والتقيا وجهًا لوجه فى أحد أسواق الخضار والفاكهة، وسط الضجيج والغبار، قالت وهى ترمقه بعينين ماكرتين:

- «طال غيابك يا قاسى..».

نظر إلى وجهها فشعر بدوار، قال:

- «كان لا بد أن أفكر..».

أمسكت بذراعه ونظرت إليه نظرات ذات معنى، يعرفها جيدًا، وقالت:

- «سأنتظرك الليلة..».

عاد ينظر إليها، شعر أنه لا يستطيع المقاومة، تذكر البحر العميق حيث لا قرار، وطافت برأسه الأحلام الوردية، ألوان راقصة، أنغام يطرب لها قلبه، بساتين يفوح منها المسك والعبير، وهو يجلس على كرسى موشى بالذهب والقطيفة الحمراء، وهى جالسة تحت قدميه تنعم بالجواهر واللآلئ، وجيوبه منتفخة بأوراق «البنكنوت» . . أموال لا حصر لها، تكفيه كى ينفق ببذخ لألف عام . . هذا هو النعيم بعينيه، ولا شىء غيره . .

- «سأحضر . . بالتأكيد . . لا أستطيع أن أتخلف . .» .

- «إذن فأنت تحبنى . .» .

- «أنت كل شىء فى حياتى، لكن . .» .

- «لكن ماذا؟» .

- «زوجك . . محفوظ . .» .

- «لا تفكر فيه الآن . .» .

- «لكنه زوجك . . وسوف يخرج من سجنه يومًا . . أو على وجه التحديد بعد ثلاث سنوات . .» .

قالت فى خبث يفهمه :

- «العصمة فى يدى . .» .

- «غير معقول . .» .

- «اسأله . . لست جارية . . أنا ملكة نفسى . . وما أريده يحدث . . » .

- «جبارة . . . » .

- «أنت الأقوى يا وحش السجون . . » .

دق قلبه دقات منتشية ، قال :

- «سمعت ضابطًا صغيراً حديث التخرج ، يقول لصديقه فى التليفون : البقاء للأصلح . . قاطعته والسماعة فى يده : لا . . للأقوى . . صرخ فى وجهى اخرج يا حيوان . . ابتسمت . . قلت له . . هكذا تأكدت وجهة نظرى . . سوف أخرج لأثبت لك أنك الأقوى . . » .

همست :

- «على الرغم من أننى لا أفهم تمامًا ما تقول إلا أننى أقدس القوة . . » .

- «يبدو أننا متفقان . . » .

- «بالتأكيد يا جاد الله . . » .

- «فلماذا لا نتزوج ؟؟ » .

- «كيف ؟؟ » .

- «تطلبين الطلاق من محفوظ ، ذلك الحق . . لأنه مسجون لمدة طويلة ولأن العصمة فى يدك . . »

قالت فى امتعاض:

- «ليس هذا تصرف الأقوياء، ثم إنه بينى وبينه عهد.. قد يظن البعض أننا حثالة البشر.. لكننا نعرف الوفاء.. وكلمة الشرف على نحو ما».

هز جاد الله رأسه فى استغراب وتمتم:

- «الشرف؟ ماذا تقولين؟».

- «نعم.. أنا أفهم الشرف بطريقتى.. أعنى بطريقتنا مستحيل أن أخذله وهو سجين.. إذا فعلت فسيركبنى العار طول حياتى..».

قال غاضبًا:

- «تطعنين بشرفه كل يوم، ثم تتحدثين عن الشرف؟».

- «يومًا ما ستفهمنى..».

- «إذن لا مناص من التخلص منه..».

- «ممن؟؟».

- «محفوظ.. أستطيع أن أقتله فى السجن دون شبهة، وبطريقتى الخاصة.. أنا أكره من يعترضنى..».

توقفت عن المسير، وقالت بجدية:

- «لو فعلتها فلن أكون لك . . وستدمر مستقبلنا . . إنك تحكم على خطتنا بالإعدام يا جاد الله . . وأنا لن أعجز عن الحصول على رجل آخر . . » .

- «أهو تهديد؟؟» .

- «بل نصيحة أخوية . . » .

- «لكنى أحبك . . أحبك بجنون . . » .

- «وأنا لك . . » .

أمسك بذراعها فى عنف، وقال :

- «أتحبيننى؟» .

- «أتشك فى ذلك؟» .

- «قوليها بصراحة . . » .

- «أيها الغبى . . أمامك ألف دليل ودليل . . » .

وسادت فترة صمت قالت بعدها :

- «هه . . سأنتظرك الليلة . . » .

وظل شارداً برهة، ثم عاد ينظر إليها فلم يجدها، كانت قد ذابت فى خضم الزحام . . فعاد أدراجه صوب الليمان . .

●●●



بدت الدهشة على وجه جاد الله، حينما رأى «حسنين» قادمًا، وعلى الرغم من أنه رحب به في فرح ظاهرى، إلا أنه تساءل بينه وبين نفسه: ما الذى أتى بحسنين هذه الساعة؟ وإلى متى يظل.. يلح فى مطاردتى والاتصال بى سواء فى البيت أو داخل السجن، لقد مللت أسلوبه وطريقته فى الكلام. وجهه السمح يغيظنى، تُقاه واطمئنانه ورضاه بنصيبه كلها تثير اشمئزازى.. إصراره على أن يؤدى الصلوات فى وقتها وبسننها وأورادها، يذكرنى بتطبيق اللوائح والقوانين الصارمة، ونظر جاد الله إلى وجه حسنين المضىء، وإلى الشعرات البيض التى تخالط شاربه وفوديه، وإلى عينيه الصافيتين الباسمتين اللتين تفرضان الاحترام والتقدير، ثم تمتم:

- «الشاى يا ميمونة..».

واتجه بحديثه إلى حسنين قائلاً:

- «أراك سعيدًا الليلة..».

- «إننى سعيد دائمًا، وكيف لا أسعد وقد حبانى الله بالخير كله؟».

قهقه جاد الله فى سخرية وقال:

- «الخير كله يا حسنين؟؟».

رد فى تأكيد وثقة، وهو يدق الأرض بعصا معوجة فى يده:

- «نعم.. أخبرنى شيخى أن رسولنا يقول: من عاش آمنًا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها.. وهكذا ترى يا جاد الله أن السعادة فى كلمات ثلاث: الأمن... الصحة... أكل يوم... أو تستطيع يا جاد الله أن تعترض على كلام رسول الله؟».

هز جاد الله رأسه فى استنكار قائلاً:

- «أستغفر الله... شيخك بحر علم..».

- «أجل هو كالبحر الطامى..».

وكعادته فى الهروب دائمًا، تفلسف جاد الله قائلاً:

- «خلق الله الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، والجهل والعلم، والصحة والمرض.. ثم قسّم الأرزاق..».

- «صدقت...».

- «وأنا أعرف نصيبى يا حسنين.. المعصية والجهل والفقر.. ترى ما ذنبى أنا فى ذلك..».

واشتعل الحوار بينهما، جاد الله يؤكد أن الخطيئة من إرادة الله، وأن العبد لا حيلة له، وحسنين يتحدث عن إرادة الإنسان الحرة في أن يفعل أو لا يفعل، وأن عدالته قد اقتضت أن تكون العقوبة أو الثواب للإنسان بناء على تلك الحرية، كانا يتحدثان بعبارات بسيطة، في قضية من أخطر القضايا القديمة، وأشدها صعوبة ووعورة، وهي قضية «الجبر والاختيار» وإن لم يعلما ما هو الجبر وما هو الاختيار، ولا المصطلحات العويصة، والتحليلات الشاقة التي تناولها العلماء والفقهاء والفلاسفة جيلاً بعد جيل. . . وكان حسنين مؤمنًا بأن إرادة الله فوق كل إرادة، لكنه عادل ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وكان جاد الله يحاول أن ينفي عن نفسه المسئولية، بحجة أنه لا يفعل فعلاً، ولا ينطق قولاً إلا بأمر الله، ويبين كيف أن الظروف القاهرة أحيانًا قد تدفع الإنسان إلى السرقة فيصبح لصاً، أو تجُره إلى الفحشاء فيصير زانيًا، أو تغريه بالمتعة والفضول فيسكر أو يتعاطى المكيفات، وطال صبر حسنين، وظل يناقش جاد الله في أفكاره الشاذة، التي تتلاعب بالألفاظ، والتي تبدو في ظاهرها معقولة، ولكنها في حقيقتها الافتراء والزيف والوهم، وأخيرًا قال حسنين:

- «ما الذي يفعلونه بالسارق إذا أمسكوا به متلبسًا؟؟».

- «يساق إلى السجن يا حسنين. .».

- «وعلى أى أساسْ يفعلون ذلك . . ».

- «القانون يا حسنين . . ».

- «وإذا لم يفعلوا ذلك . . . ».

- «تصبح الدنيا فوضى يا حسنين . . ».

وقف حسنين فى غضب وصرخ مهتاجًا :

- «يا حسنين . . يا حسنين . . ما هذا ، أتقبل عدالة الأرض ، وتشك فى عدالة الله؟».

قال جاد الله ببرود :

- «ومين قال إن فى الأرض عدالة؟؟ لو كان بيدى الأمر لما سجنت السارق ، ولا قبضت عليه أصلاً . . إنه لا يسرق إلا لأنه محتاج . . لكن الله لا يحتاج إلى شىء منا . . عداله الله فوق الشك لكنكم تفسرونها تفسيراً يتفق وهواكم . . ».

سدد إليه حسنين نظرات يمتزج فيها الإشفاق بالضيق ، وفكر فى أن يتركه ويرحل ، لكنه سمع صوت ميمونة الخجول الضعيف وهى تقول :

- «الشاى يا جاويش حسنين . . ».

جلس وهو يلهث ، وأمسك بكوب الشاى فى عصبية ، ثم ارتشف منه رشفة طويلة برغم شدة سخونته ، وعادت ميمونة تقول :

- «لا تتضايق من جاد الله . . إنه كثير الكلام . . رأسه مصفحة . . لا يكل ولا يمل . . لو تركتــه يتكلم يومين كــاملين لما توقف عن الكلام . . إنه يمزح يا سي حسنين . . دائمًا يقول لي كلامًا كثيراً ولا أفــهم منه إلا القليل . . ولهــذا لا أسـتطيع أن أنصت له طويلاً . . مـاذا أفـعل؟ الأولاد يشـغلون كل وقـتي . . أمـا هو فبضاعته الكلام . . » .

صاح فيها جاد الله معنفًا :

- «اخرجي يا جاموسة . . » .

- «جاموسة . . بقرة . . الله يسامحك . . قل ما تشاء يا جاد الله . . كله مقبول منك . . إن لم أتحملك أنا فمن يتحملك» . . ولم تعطه فرصة كي يستطرد في سبها وشتمها ، وبعد أن خرجت بقيا صامتين بضع دقائق ، وما إن انتهيا من شرب الشاي ، حتى قال حسنين :

- «جئت أدعوك لعقد قران ابنتي . . » .

رفع جاد الله حاجبيه في دهشة ، وقال :

- «ابنتك؟؟» .

- «نعم . . الزواج ستر وغطاء . . » .

- «لكنها لم تكمل تعليمها بعد . . » .

- «لا يهم . . لقد اكتملت أنوثتها . . » .

- «هذا أمر ثقيل عليك . . »

وعلى الرغم من أن جاد الله قد هنأه بهذه الخطوة إلا أنه أبان عن العقبات التى لا شك ستعترضه، فجهاز العروس اليوم يتكلف مبلغًا باهظًا لا يقدر عليه حسنين، أضف إلى ذلك أعباء تكملة التعليم، ومسئولية الأطفال إذا ولدت مبكرًا، وغير ذلك من الأمور التى لا تخفى على أحد، وخاصة إيجار شقة لسكنى العروسين، وعلى الرغم من موافقة حسنين على ما أبداه جاد الله من وجهة نظر إلا أنه قال :

- «خطيبها يعمل مهندسًا فى شركة «عثمان»، ويتقاضى مرتبًا لا بأس به، وكثيرًا ما يسافر للخارج لإنجاز بعض الأعمال للشركة فى السعودية وليبيا والكويت . . المهم أنه مستور، ولديه المسكن . . وأثاث المنزل . . سوف يأخذها من يدها ويرحل . . ولن يكلفنى إلا ملابسها والكعك و . . . » .

قاطعه «جاد الله» قائلاً :

- «وأين ستقيم الحفل؟» .

ابتسم حسنين، وعادت إلى وجهه إشراقة النور، وقال :

- «فى المسجد . . . » .

- «يا ربى . . المسجد؟ أهى جوازة أم جنازة؟؟» .

- «استحى يا رجل . . ولا تفضح نفسك . . » .

احتقن وجه حسنين ، لكنه تماسك وقال :

- «وسيكون شيخنا على رأس المدعوين . . وهو الذى سيشرفنا بعقد القران . . وأحيطك علمًا يا جاد الله أن العريس هو صاحب اقتراح المسجد . . » .

لم يرقَ هذا التصرف لجاد الله ، ورأى فيه حطاً من أقدار السجانة كطائفة لها احترامها ووزنها ، كما رأى فيه حيلة خبيثة لتقليل النفقات ، وضغط المصروفات ، فلا زينات ولا أضواء ولا موائد حافلة بأطيب الطعام ، ولن تدور «الجوزة» أو تتقارع الكئوس ، ولن تهز الراقصة أردافها ، أو تردد أغانيها المكشوفة ، ولن تدق الطبول ، أو تعزف الموسيقى أو تطلق الرصاصات والزغاريد . .

هتف جاد الله فى ضيق :

- «لن أسمح لنفسى أن أحضر عرسًا كهذا . . أتدرى لماذا؟ لأنى أغار على سمعتك وشرفك . . » .

- «أعرف أنك تجادل فى كل شىء . . » .

- «ألن تدعو المدير أو المأمور مثلاً . . ؟؟» .

- «سأدعوهم . . ولن يحضروا . . » .

- «وإذا حضروا يا حسنين ، فماذا يكون موقفك؟ . . » .

بَسطَ حسنين راحتيه فى هدوء وقال :

- «لا شيء . . سيشربون الشربات . . ويصلّون العشاء فى المسجد . . ويستمعون لدرس قصير من شيخنا الجليل . . » .

جز جاد الله على أسنانه فى غيظ :

- «اعذرنى . . لن أحضر . . » .

- «لكنى أعدت مائدة خاصة للزملاء وأسرهم فى بيتى بعد العودة من المسجد . . » .

صاح جاد الله ثانية :

- «لن أحضر . . » .

هز حسنين كتفيه مستغربات وقال :

- «أنت حر . . » .

واستأذن فى الانصراف، بينما وقف جاد الله جامداً فى مكانه، دون أن يرافقه إلى الباب، أو يجامله بكلمة توديع، وما إن خرج حسنين من الباب حتى جاءه صوت ميمونة فى فرح :

- «ألف مبروك يا جاويش حسنين . . لسوف أحضر أنا على عينى وعلى رأسى . . يا ألف نهار أبيض . . » .

●●●

ومضى حسنين، وبقى جاد الله قلقًا، وكأنه يقتعد جمرًا من نار عاتية، إن زواج ابنة حسنين قد أحنقه أشد الحنق، وأثار فى رأسه العديد من الخواطر، وحرّك فى نفسه عذابًا لا حد له، هذا الرجل يحقق أحلامه برفق وهدوء وبلا إمكانيات، ويصعد السلم وهو خاوى الوفاض، فكيف يصدق جاد الله أن ابنة السجان حسنين النكرة.. الفقير... تتزوج هذه الزيجة الحسنة.. بل الممتازة.. مهندس كفء من شركة «عثمان أحمد عثمان»؟؟ هل أصيب ذلك المهندس بالعمى والبلاهة؟؟ وما الذى أتى به إلى «عزبة السجانة» ليختار «فريدة»... فريدة بنت السلطان حسنين؟؟ ألم يدخل تلك البيوت القميئة التى تشبه الأقبية العفنة، ألم يرَ حثالة البشر من السجانة وأبنائهم وبناتهم ونسائهم، وهم يثيرون الضجيج، ويتبادلون السباب والشتائم البذيئة؟؟ لا بد وأن فى الأمر خدعة راح ضحيتها سيادة الباش مهندس، أو أن حسنين يبالغ فى الأمر، ويضفى على زوج ابنته ما ليس فيه من صفات ومركز ورخاء.. الأمر بالنسبة لجاد الله ليس مسجدًا أو صالة احتفالات فخمة، وإنما هو الغيرة الكاسحة التى اهتز لها كيانه، وارتجت لها فلسفته!! نعم.. تلك هى الحقيقة التى يخيفها جاد الله فى داخل نفسه الملتوية السوداء التى تكره كل سعادة ونجاح عند الآخرين.. فهو يظن أن أسلوبه فى الحياة هو الأسلوب الأمثل إن لم يكن الوحيد للوصول إلى الغابات، لكنه يرى لدى حسنين وجهًا آخر للسعادة.. يرى

رجلاً واثقًا مطمئنًا، ويرى زوجًا لا يسمع لها صوت، تتصف بالعفة والكمال، ويرى فريدة وهى توشك أن تزف لرجل من خيرة الرجال، ومن يدرى قد يكون ولده الموظف هو الآخر فى طريقة لاصطياد زوجة من بنات الأكابر.

إن «محمود بن حسنين» هو الآخر فى منتهى الذكاء إن لم يكن يعطى دروسًا خصوصية فى عطلة الصيف، ويحقق دخلاً لا بأس به وهو لم يزل طالبًا صغيرًا، ما معنى ذلك كله؟

ونظر جاد الله إلى ابنته البالغة من العمر اثنى عشر عامًا، كانت تجلس متسخة الثياب، منتفشة الشعر، تتثاءب وعيناها محتقنتان وهى تحملق ببلاهة فى كتاب موضوع أمامها على «طبلية» خشبية، ووجد نفسه-على الرغم منه-يقارن بينهما وبين «فريدة» بنت حسنين، أثارته المقارنة، وملأت قلبه بمزيد من الغضب والحنق، فهب من مكانه، وذهب إلى حيث تجلس ابنته، وقال فجأة:

- «ماذا تفعلين يا شادية؟؟».

انتفضت فى رعب، طار النوم من عينيها، انهمرت دموعها وقالت وهى ترتجف:

«أذاكر يا بابا..».

أمسك بأذنها فى غلظة، والبنت تتلوى، وقال:

- «تذاكرين يا بنت ميمونة؟ وفى آخر العام تأتى الشهادة ممتلئة بالكعكات الحمراء. . ما زلت فى الثالث الابتدائى ومن هم فى مثل عمرك وصلوا المرحلة الإعدادية. . لو رسبت مرة ثانية فسأذبحك كما تذبح الفرخة. . مفهوم؟».

وفر باقى الأطفال مذعورين حينما رأوا ما حلّ بأختهم الكبيرة، وأتت ميمونة مهرولة، وهى تصيح:

- «ماذا تريد أن تفعل بنا؟ حرام عليك يا رجل. . قلت لك ألف مرة إنها تحتاج لدرس. . وأنت يا جاد الله الفلوس عندك أهم من مستقبل ابنتك وأولادك. .».

لم يكترث لقولها، عاد إلى مكانه المعهود فى الغرفة، وجلس فوق الكرسى الخشبى، وأخذ يتطوح فى انفعال ظاهر:

- «قلت فلنسمها «شادية» يومها كنت متعشقًا لأغانى شادية وفنها. . . وجمالها. . . فإذا بشاديتى بلهاء كالبومة، يضرب بها المثل فى الغباء والقذارة. . وبنت حسنين تتزوج من مهندس محترم. . وأنت من سيتزوجك يا بنت ميمونة؟».

صرخ فى حدة:

- «ميمونة. .».

- «أنا أهه. . .».

وضع يده فى جيبه، وأخرج جنيهًا، ثم تمتم:

- «تعرفين الطريق..».

هزت رأسها فى حسرة..

- «أعرف..».

وتناولت الجنيه، وارتدت ملاءتها، وخرجت لتشترى له وجبة «الأفيون» اليومية، كانت تغمغم: «ألن يتوب الله عليك».

- «هتف فى حنق: ماذا تقولين؟؟».

قالت وهى تشد الباب وراءها بعنف: «لا شىء..».

●●●

[٨]

خُيل إليه أن قوى قاهرة خفية تجذبه إلى هناك، وهو يتسلل عبر الظلمات إلى مخبأ الطقوس النارية، حيث تتعرى نوازع الحيوان الجائع فى نفسه، وعلى الرغم من عشرات المشاهد التى تتعاقب عن يمينه وشماله ومن أمامه، إلا أنه لم يكن يرى إلا وجهًا واحدًا يتبدى فى غلالة الضباب والمطر، وذلك هو وجه «إنتصار»، عندما يضمها إلى صدره يخيل إليه أنه أضاف عمرًا إلى عمره، وثروة على ثروته، وهو عندما يسرق يشعر بلذة تهزه هزًا، وإذا ما سلب أو نهب أيقن أن حقه الضائع قد عاد إليه، وإذا مارس الخطيئة بدا له أنه يؤكد ذاته التى رزحت طويلاً تحت نير القهر والحرمان.. و «جاد الله» يشك دائمًا فى قيم الحياة النبيلة كالخير والشرف والحب.. فهى ليست قيمًا عليا كما يعتقد الغافلون، إنها إن وجدت، وبحثت عن أصولها تجدها ضاربة بجذورها فى أرض المنافع والأنانية والمادية، حتى صديقه الطيب حسنين الذى يهرب من المعاصى، ويقبل على الطاعات، وينهمك فى الذكر والعبادة، تحركه

دوافع . . نعم دوافع مادية صرفة . . حسبما يعتقد جاد الله- منها الستر ، والنجاة من الكوارث ، والبركة فى الرزق ، والحماية من غدر البشر ، وأخيراً الطمع فى جنة الموعودين . . هى مصالح إذن ، وإن كانت من نوع آخر ، تختبئ تحت عباءة الزهد والطاعة . .

النجوم تختفى تحت تراكم السحب القاتمة ، وفى عالمه النفسى الموغل فى هاوية سحيقة تثور عواصف وزوابع ، أية لعنة قد شكلته على هذا النحو المتمرد الثائر الذى لا يقاوم؟ ذات يوم ارتكب عبثًا صبيانًا مع حفيدة «الباشا» هو يذكر ذلك تمامًا ، كان فى الرابعة عشرة من عمره ، وجد خديها متوردين ، وعيناها الجميلتين تهمسان بأغنية ملائكية سعيدة ، ونضرة شفتيها تترجم عن ثمرة عذراء شهية . . لم يتمالك نفسه أن قبلها . . يا لها من قبلة قاتلة ! ! رأته إحدى الخادمات وهو يقبل الطفلة ذات الأعوام السبع ، كان يومًا ساقوه إلى محكمة لا مثيل لها . . كل من فى القصر الكبير آذاه . . كانوا يتعبدون إلى سيد القصر بإيذاء «جاد الله» الحافى . . المرتجف . . النحيل . . ناظر العزبة كان من رأيه أن يذبح كما تذبح الشاة ويرمى لحمه للكلاب ، وشيخ الخفراء أطبق على عنقه ، وأراد أن يقضى عليه خنقًا ، أما الكاتب العجوز فقد قال : «ارجموه بالحجارة ، إنه ملعون مثل أمه وأبيه . . » وكانت سيدة القصر أكثرهم رحمة ، إذ رأت أن يكوى بالنار فى وسط رأسه ، ثم يجلد . . كان حكمًا دون استئناف ، عند التنفيذ شعر برأسه يلتهب ، وأثناء الجلد

لم يشعر بالألم إلا فى الضربات الأولى . . منذ ذلك اليوم ترسبت فى أعماقه مئات المشاعر السجينة . . لكى يعيش لا بد وأن يجبن . . ويضغط على غرائزه . . ولا يصح أن يعبر عن كل ما فى نفسه . . وعند تطبيق فلسفته تلك، ظهر أنه لن يستطيع التعبير عن شىء ذى قيمة . . بل كان يعبر بصورة آلية عكسية عما يختمر أو يهدر فى نفسه . . فإذا أراد أن يبكى ضحك، وإذا هم بأن يغضب ويلعن، يجد نفسه يبتسم ويمرح . . وطالت وامتدت جذور الكذب والنفاق فى نفسه، وعندما سقطت سلطة القصر وساقوا الباشا إلى حيث لا يعلم، وانطلقت هتافات الثورة أفلت من آلاف القيود، ظن إنه قد ورث سلطة الباشا الكبير، لكنه بُعد لأنى تبدت له حقيقة مُرّة . . إنّ له أن ينطلق ويمرح ويتحرر فى دائرة محددة، وفى طريق واحد مرسوم، ويمشى بحساب دقيق، شعر أن القيود القديمة تقترب من ساقيه، فالباشاوات الجدد أذكى وأدهى . . بل وأقسى . . وتأكد من ذلك حينما أصبح سجّانًا فى السجن الحربى، حيث نال اللقب الأعظم «وحش السجون الحربية» . . . ليكن عليه أن يجدد موقفه بوضوح . . إما أن يتجاوز للمجد المنهار فى قصر الباشا، أو يستسلم للسلطان الجديد ويحمل الكرباج، أو يقف على الحياد . . كان الاحتمال الثالث عبثًا، فالحياد أصبح خطيئة، والماضى أبو الخطايا . . أدرك جاد الله أنه أصبح أسير وجهة واحدة . . وجرى مع الغالبية العظمى يهتف «مات الملك، يحيا الملك» .

تُرى ما الذى يجعل جاد الله يتداول تلك الذكريات؟ ليته ينسى هذه الكوابيس اللعينة، لو كان فى إمكانه أن يمحو الأمس من سطور حياته السابقة لفعل، لكنه عاجز. . عاجز تمامًا إزاء ذلك، قد يستطيع أن يكيف حاضره حسبما يشتهى. . لكن اليوم الذى يمضى لا سلطان لأحد عليه، وهنا النكبة الكبرى. . طالما قال لنفسه. . «دسْ يا جاد الله على الأحزان القديمة. . اسحقها سحقًا. . وانسَها تمامًا تعش سعيدًا. . ». لكن الأمس يتحداه. . الذكريات المروعة ترفع رأسها من تحت الركام. . العيون الصارمة الحادة النظرات تواجهه فى تحدٍّ، والوجوه السوداء الملطخة تبرز له. . وهو يحاول أن يحطمها. . أن يطمسها. . أن يغرقها فى محيط هائل يغلى. . لكنها تبرز وتحرك لسانها. . إنه يكاد يجن. . يريد أن يهرب ولا هروب. . قالت له ميمونة ذات يوم، إنه من المحتمل أن يكون أحد قد سحر له، وأن السحرة فى هذه الأيام يكتبون أوراقًا لعينة فى حق من يريدون، ويقذفون فى المقابر المهجورة، أو فى البحار والأنهار، وأنه لا شفاء مما يعانيه «جاد الله» إلا إذا تم العثور على «المكتوب». . وكيف يعثر على المستحيل، فى زمن المستحيل، قالت ميمونة:

- «هناك أناس برعوا فى ذلك. . يستخدمون الجن والأرواح. . فما عليك إلا أن تدفع «المعلوم»، وتعطيهم «الأثر». . قطعة من ملابسك مثلاً. . خصلة من شعرك. . ».

وذهب يبحث عن «المنقذ» حدثوه عن رجل بارع فى «عين الصيرة» فذهب إليه دون فائدة، وأكدوا له أن فى طنطا امرأة ذات باع طويل فى هذا المجال، فسافر إليها، وزار السيد البدوى فى طريقه، قالت له المرأة يومها:

- «وعد ومكتوب يا ولدى..».

- «والحل؟».

- «ليس منه هروب يا ولدى..».

- «ولماذا جئت إليك إذن؟»

- «جئت لتظهر خضوعك..».

- «لقد خضعت.. فما الفائدة؟».

- «تلك هى البداية...».

- «بداية بلا نهاية إذن..».

- «بالعمر الطويل تبلغ الأمل..».

- «ومن أدرانى أن يطول عمرى.. نحن فى زمن يقصف أعمار الشاب.. وأنا ممن لا يصبرون..».

- «وماذا تريد إذن؟».

«شىء واحد.. أن أنسى الماضى.. وأنجو من الكوابيس..».

- «قل يا رب. .».

- «يا رب؟ إننى قلتها ألف مرة. .».

- «هى مفتاح السر. قلها من قلبك. .».

- «تتحدثين مثل حسنين. .».

- «حسنين على حق. .».

«هل تعرفينه؟».

- «أعرف أن الحق واحد. .».

- «أنت معذورة لا تعرفين شيئًا. أصبح الحق فى زمننا بألف وجه ووجه. .».

ولم يغادر طنطا إلا بعد أن ذهب وأبلغ عنها الشرطة، فقبضوا عليها متلبسة، وقد وجهوا إليها تهمة التدجيل، وحينما كان يؤدى شهادته ضدها سمعها تقول:

-«ملعون أينما ذهبت. .».

- «ليكن، فلم يعد الأمر يهمنى. .».

وكم كانت دهشته عندما قالت المرأة:

- «أنا لم أتقاضَ منه قرشًا واحدًا، ولم أكتب له ورقة، أو أصف له دواءً. كل ما فى الأمر أننى وجهته ببضع كلمات. فهل القانون يمنع النصح؟؟».

وذهل إذ رآها تغادر «القسم» قبل أن يغادره هو . . طال الطريق . . والذكريات تنثال . . وجاد الله يغذ السير، وحينما يغرق فى طوفان الذكريات والصور القائمة الدارسة يزيد من سرعته، وكأنه يهرب من قاطع طريق يطارده ويلح فى طلبه، وعندما وقعت عينه على مسكنها . . رقص قلبه من النشوة وغابت الذكريات بدا كأنه إنسان آخر . كان الصمت يزين على المكان . . تصورها تجلس فى الداخل تنتظر . . واقشعر بدنه وهو يفكر فى اللقاء . . ودق الجرس . .

انفتح الباب على الفور . .

أطلت عليه بوجهها الفاتن الذى لا يبدو عليه أى أثر للخوف أو التردد . . . احتواها بين ذراعيه قبل أن تغلق الباب . .

همست وهى تتلفت من بين ذراعيه :

- «فى العجلة الندامة . . » .

قال وهو يجلس فوق المقعد لاهثًا :

«شبعت ندمًا . . » .

قالت وهى تبتسم :

- «أوحشتنى . . » .

- «لو استطعت لعشت معك بصفة دائمة . . » .

- «أنت معى دائمًا . . » .

- «صحيح؟؟».

- «ألا تعرف؟؟».

- «لم أعد أعرف شيئًا..».

هدأت أعصابه رويدًا، وأخذ يتناول حبات البرتقال، وينزع عنها قشرها بيد لم تزل ترتجف، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث دون هدف محدد، مجرد ثرثرة عن محفوظ والسجن والأحوال العامة، وغلاء الأسعار، والمرتبات التى لا تفى بالمطلوب، وخراب الذمم، وفساد الضمائر، كان مجرد استعراض لهموم عامة أو خاصة، دون التصدى للحل الأمثل وبدا أن المشاكل الخاصة هى محور الكلام، أو المشاكل الكبرى التى تخص الناس جميعًا، فلم يكن لها حيز يذكر، وخاصة أن الصحف والإذاعة وخطب المسئولين تتناولها بكلام كثير فيه الكفاية، وقد جرى العرف أن الكلام فى مثل تلك القضايا الكبيرة محفوف بالمخاطر، ويا ويل من ينتقد علانية، فإما أن يبلغ عنه عضو فى الحزب، أو يتصادف ويسمعه مخبر، وفى كلتا الحالتين، تقع الكارثة.. ثم إن إنتصار لا يروق لها الحديث فى مثل تلك الأمور التى لا تهمها، بل ولا تعرف عنها شيئًا يذكر، وجاد الله هو الآخر قد وصل إلى قناعة لا تتزعزع.. «أنا وليذهب الجميع إلى الجحيم».

●●●

استطاعت «إنتصار» بلباقة تبدو فطرية أن تشد انتباهه إلى المشروع الأساسى فى علاقتها به، وكانت خطورة الموضوع كفيلة بأن تجعله يستيقظ من أحلامه الجنسية المسعورة، إن الأمر جد لا هزل فيه، ولا يصح أن تضيع الأيام هباء؛ لأنها لا تحسب بالعدد ولكن بما ينجز فيها من أعمال مفيدة، والإنسان لا يستطيع أن يأكل حُبًا ويلبس حُبًا ويشرب حُبًا، تلك هى الحقيقة المرة، فالمعدة لها مطالب، وتكاليف الحياة باهظة والدخل محدود، وجاد الله لن يستطيع أن يفتح مكتبًا للاستيراد والتصدير.

أو ينشىء شركة للمقاولات وهو لا يملك شيئًا يذكر، كانت هذه كلها بديهيات بالنسبة لجاد الله آمن بها من قديم، وشرحت له إنتصار خطتها ببساطة لا تعقيد فيها، سوف تنقل إليه ماكينة الطباعة ولوازمها، وستوضع فى بيته فى مكان أمين لا يصح أن يدخله أحد مهما كان عزيزًا عليه، وسيقوم هو بطبع الأوراق المالية الزائفة، وسيأتى من يستلمها منه كل صباح، وستقوم هى ومن معها بالتوزيع أو الترويج وحصته فى الربح ثلث الإيراد، لن يكون هناك عقد مكتوب ولكنها الثقة والأمانة. . ولم تضيع «إنتصار» وقتًا إذ أخذت جاد الله إلى غرفة داخلية، ثم كشفت الغطاء عن الماكينة، وأخذت تشرح له طريقة الإعداد والتشغيل، واستعمال «الأكليشهات» والتجفيف والتقطيع وتركيب الأوراق وما إلى

ذلك، وأجرت أمامه عددًا من التجارب العملية، تركته يقوم بنفسه بتأدية العمل، كى يتدرب بكفاءة، كان يعمل فى حماسة منقطعة النظير، وشعر بالسعادة تغمر كيانه، حين رأى الأوراق المالية بين يديه، إن الأمر فى غاية البساطة، وهو أسرع وسيلة لرفع مستواه الاقتصادى، واستدار إليها فجأة وقال:

- «ولماذا لا نطبع العملة الصعبة؟ إن لها سوقًا رائجة..». قالت فى دهاء:

- «صبرًا يا جاد الله..».

ثم أخرجت من تحت الوسادة نماذج من الدولار والإسترلينى، ،وأبرزتها إليه، فأخذ ينظر إليها مبهورًا، وتمتم:

- «لأول مرة فى حياتى أرى العملة الصعبة.. ترى لماذا سموها صعبة؟ ألا تعرفين؟».

- «لأن تزييفها صعب جدًا..».

ثم قالت وهى تحرك يديها أمامه وخلفه فى حركة ساخرة:

- «لكن يا حسرة الجنيه المصرى سهل جدًا.. ليس فيه أية صعوبة.. تستطيع أن تطبع ألفًا فى ليلة..».

ثم أخذت تشرح له سهولة توزيع العملة الصعبة؛ لأنها تتم دائمًا فى خفية، ولا تروج إلا فى السوق السوداء، بسبب القوانين

الصارمة التى تطبقها الحكومة، أما الجنيه المصرى فهو صريح متواضع، يمكنك أن تشترى به الفجل.. اللحم.. الكرنب.. والكرشة.. وتعطيه مطويًا لكمسارى الأتوبيس أو لسائق التاكسى، «ألم أقل لك؟؟ الجنيه المصرى متواضع مثلنا.. وعلينا أن نبدأ بهذا المخلوق الطيب المطيع الذى لا يسبب كثيرًا من المشاكل..» لكن دع التوزيع لنا.. نحن لدينا الجهاز المدرب لذلك..

قال جاد الله:

- «ولماذا لا تبقى الماكينة هنا، ونشترك فى العمل معًا؟».

ردت إنتصار فى حزم:

- «لا يحق لك المناقشة فى هذا الأمر، هذا قرار لا رجعة فيه، ولك حق الرفض أو القبول.. وإذا لم توافق، فليذهب كل منا لحال سبيله..».

قال فى لهفة مشوبة بالخوف:

- «أنا موافق.. فقط أردت أن أعرف..».

- «لقد شرحت لك الأمر أكثر من مرة.. أنت رجل حكومة، والشك فيك بعيد الاحتمال.. تستطيع أن تنتج بمنتهى الاطمئنان.. أما نحن فالعيون علينا ولذا ترانى أنتقل من مكان

لآخر. . الشهر القادم سوف أغير مسكنى. . الخطة متشعبة ودقيقة ولا مجال لشرحها بالتفصيل. . النجاح أكيد مائة فى المائة بشرط واحد. . ».

هتف فى تشوفٍ وعجلة.

- «ما هو؟؟».

- «الالتزام والأمانة. . ».

- «ماذا تعنين؟؟».

قالت وهى تعيد الغطاء فوق الماكينة وتحبكه:

- «قد يدفعك الطمع لإنتاج المزيد. . وقد تخفى عنا كمية لتوزعها لحسابك. . حذارِ. . هذه أخطر نقطة. . ».

- «أوَتشكين فىّ؟».

- «مجرد لفت نظر. . ».

اقترب منها حتى كاد يلاصقها:

- «ومتى نبدأ؟. . ».

- «فى ساعة الصفر. . »

قهقه فى مرح:

- «تتحدثين كرجال الجيش. . ».

أشارت بيدها إلى رأسها قائلة :

- «هنا مخ . . » .

- «ولماذا سقط محفوظ ؟ . . » .

- «الرجال يسقطون . . لحماقتهم . . أما أنا فلا . . » .

أحضرت زجاجة من الويسكى وكأسين ومزة شهية . . جلست فى مواجهته متوردة الخدين ، شعرها الناعم مرسل على كتفيها العاريين ، اشتعل رأسه وهو يضع الكأس على شفتيه :

سمعها تقول :

«سأعلمك الصبر . . » .

- «الصبر يقتلنى . . » .

- «بدونه يفسد كل شىء يا جاد الله» .

- «هكذا يقول حسنين . . » .

قالت فى دهشة :

- «من حسنين هذا؟» .

- «صديق مغفل . . أبشع صفاته القناعة . . » .

- «ابتعد عن أعز أصدقائك فى هذه الأيام . . فى البداية على الأقل . . ولا تحاول أن تظهر بمظهر الثرى . . عش كما أنت . .

أظهر لهم التعاسة والذل . . واقترض منهم إذا استطعت . . أتفهم؟

نظر إليها وقد لعبت الخمر برأسه، وقال فى إعجاب :

- «أنت أستاذة . . » .

- «لا تبالغ . . » .

- «من يسمعك يظن أنك خريجة جامعة . . » .

- «الحياة أعظم جامعة يا جاد الله» .

قال مقهقهًا :

- «نحن خريجون فى دفعة واحدة . . . . » .

- «لكن يا للسخارة . . ضاعت شهاداتنا فى مكتب القوى العاملة . . . » .

وثب من فوق مقعده، تشبث بها، وهم بتقبيلها، قالت فى حزم :

- «ليس الليلة . . » .

- «مستحيل . . » .

- «السمع والطاعة يا جاد الله» .

- لقد مللت السمع والطاعة فى حياتى العسكرية . . أعشق التمرد . . هذا فوق الطاقة . . » .

هرولت، ثم فتحت الباب قائلة :

- «عد إلى بيتك . . » .

- «أنا لا أفهم . . » .

- «ذلك اختبار . . »

جر رجليه فى تثاقل، شعر بالنسمات الباردة تنفذ إلى عظامه لكن جسده الحران كان يقاوم، حاول أن يسرع الخطا، غير أنه أدرك ما به من الترنح، أشار إلى سيارة أجرة، وهتف :

- «إلى عزبة السجانة . . » .

تمتم السائق :

- «أعوذ . . بالله . . » .

●●●

[٩]

الناس فى «عزبة السجانة» يشمون رائحة كل شىء، فهم يتنسمون ريح الفضائح مثلما يتنسمون رائحة الباذنجان المقلى والسمك والكرنب المحشو، وهذا المجتمع الصغير قد انتقلت إليه عدوى السجن والسجناء، إذ قلما يثق السجانة فى بعضهم البعض، وكذلك الزوجات والأولاد، والمشاجرات تنشب بينهم من آن لآخر، وتتسم بالعنف والأصوات العالية، وفى كثير من الأحيان تتلون، ولو بقطرات قليلة من الدم، تنزف من فم أو أنف نتيجة لكمة أو عضة أو ركلة، وتراهم يتسابقون إلى قسم الشرطة القريب على الرغم من أنهم شرطة، لكن الصلح يتم فى النهاية، لأنهم يدركون مخاطر التمادى فى العداء والمشاكسة، ولا يعدم الأمر أن يكون بينهم رجل طيب كحسنين، أو امرأة صالحة كزوجته وأولاد مؤدبين كأولاده، والسجان يقضى معظم وقته فى السجن، فهم يسيرون على نظام اليوم الكامل، أى منذ السابعة صباحًا، حتى الخامسة أو السادسة مساءً، فتراهم يعودون مرهقين

لا يحلمون بأوقات من الهدوء والراحة والاسترخاء ولكن كيف؟ إن الضجيج العالى، والمشاحنات الدائمة، والضيق الذى يهيمن على النفوس، ويجرهم إلى المعاناة الدائمة، ويدفعهم دفعًا إلى الخصومات والتى كثيرًا ما تسبب النساء والأطفال فيها، لكن الأمر اللافت للنظر أن السجانة فى السجن، غيرهم فى العزبة، ففى السجن يوحدهم النظام والهدف المشترك، ولابد أن يكونوا يدًا واحدة فى مواجهة هذه الفئة الفظة الشرسة من المسجونين، ومهما حدث بينهم من شقاق فى العزبة فإنه ينتهى بسرعة، ويتناسى الجميع ما كان بينهم من خلاف . . .

تسلم «جاد الله» ماكينة الطباعة الصغيرة ذات مساء، ووضعها فى مكانها المختار، دون أن يدرى أحد، حدث ذلك فى غيبة زوجته وأولاده عند منتصف الليل، وكشف جاد الله عن وجه الماكينة، وأخذ يتطلع إليها فى سعادة وعشق، هذه الآلة العجيبة سوف تنقله من حال إلى حال، وسوف تحل عقده النفسية المزمنة المرهقة، الأغبياء أفهموه أن العلاج لدى أدعياء الطب الروحانى حيث البخور والرقى والتعاويذ، وزعموا أن المتخصصين فى العلاج النفسى من الأطباء أدرى بحاله، وأن بضعة أقراص ونصائح سوف تقضى على كل متاعبه ومشاكله، تمتم جاد الله وهو يرمق الماكينة . .

«الحمقى لا يعرفون الحقيقة. . المشكلة معروفة. . . وعلاجها «معروف»، ثم انحنى على الآلة وأخذ يقبلها ويهمس في حنان: «أنت العلاج. . الفقر لا علاج له سوى المال، والجوع لا يذهبه إلا الطعام، والحرمان لا يزيله إلا الشبع، وليست هناك أقراص أو إبر أو نصائح تشفى العلة. . الناس يخدعون ويغشون ويكذبون. . وأيًا كانت النتيجة فلا بد أن أعيش كما يحلو لى، كان جاد الله شاكًا إلى أبعد حدود الشك، فالناس فى رأيه يظهرون خلاف ما يبطنون، ويعيشون عبيد التقاليد والنصائح الموروثة، ويتشدقون بالقيم النبيلة، وهم أبعد ما يكونون عنها، ويفعلون فى الخفاء عكس ما يقولون فى العلن. . .

حين دخل غرفة النوم متأخرًا، يتسلل على أطراف أصابعه، جاءه صوتها الواهن من أثر النوم:

- «أين كنت يا جاد الله؟».

صمت برهة، ثم قال وهو يلقى بجسده على السرير:

- «لا تسألينى يا ميمونة عما أفعل. .».

- «ألست زوجك؟؟».

- «اعرفى حدودك يا ميمونة. . نامى. .».

ومرت أيام قليلة وهو فى شبه عزلة تامة عن العالم من حوله، يجلس فى السجن شاردًا، ويمارس عمله العادى داخل العنبر

متكاسلاً، وتقوم الدنيا وتقعد وهو لا يتحرك إلا نادراً، وعلى الرغم من أنه يأكل جيداً، إلا أن الشحوب بدا جليًا على وجهه، وبدا أنه قد خف وزنه، قال له السجين محفوظ:

- «لقد نجحت يا جاد الله فى الامتحان..».

- «كيف عرفت؟».

- «الأخبار تأتينى يومًا بيوم.. وسوف تتسلم اليوم خمسمائة جنيه دفعة واحدة..

نظر إليه جاد الله فى خبث قائلاً:

- «خمسمائة وعشرين.. وضحكا..».

لأول مرة يستحوذ جاد الله على هذا المبلغ، يا لها من لحظات جميلة لا تنسى، إنه يشعر بالنشوة العارمة حتى قبل أن يتسلم المبلغ، إن رائحة الأصباغ والمواد لا تزال عالقة فى أنفه، والكوابيس تحولت إلى شيء آخر... إنه يفكر فى الخزائن الحديدية... ويتوجس خيفة من اللصوص، ويعمل ألف حساب للعيون الحاسدة والحاقدة، كيف يتصرف؟ المال هو الخطوة الأولى، لكن لا بد أن تكون هناك خطوة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة، «الملعونة ميمونة -هكذا قال لنفسه- طرحت فكرة وجيهة.. نعم.. قالت منذ فترة: لماذا لا نشترى بيتًا بما ادخرناه

من مال، ونستفيد من إيراده؟؟ هذا صحيح . . هناك منزل معروض للبيع على ناصية الشارع . . الثمن فى حدود ثلاثة آلاف جنيه . . معقول . . لا بد وإن يتم البيع والشراء سراً . . أستطيع أن أدفع العربون . . ثم . . الماكينة تجلب لنا مالاً . . تبيض ذهبًا . . قالوا لنا فى الجيش قديمًا : الهجوم أفضل وسيلة للدفاع . .

أفاق جاد الله على وكزة من محفوظ وهو يقول:

- «أين كنت؟؟».

- «هنا . .».

- «إننى أنادى جاد الله . . . جاد الله . . . فلا ترد . .».

- «الأمر ليس هينًا يا محفوظ . .».

- «وهل نستطيع أن تقول إنه نوع من الحرص . .».

«إنتصار تعرف كل شىء . . لا تخف . .».

- «أنا لا أخاف يا محفوظ . . لكنى كلما فكرت فى احتمال السقوط . . وأنْ أساق إلى التحقيق . . والناس تتفرج على . . أكاد أجن . . لا أخاف، ولكن أريد ألا يشمت بى أحد . .».

تلفت محفوظ كاللص، ثم قال فى تؤدة:

- «يا جاد الله نحن إخوة . . تعلم أن الأمر فى البداية يكون

مزعجًا.. مخيفًا.. كالكأس الأولى.. وسرعان ما تتعود يا جاد الله».

وتصبح مدمنًا.. تشرب زجاجة كاملة فلا تسكر.. وقد كنت تتطوح من كأس واحدة.. وسيأتى يوم تصبح الماكينة كالمزاج.. لا ترتاح ولا تسعد إلا إذا أدرتها.. والمأساة لا تحدث إلا عندما تتوقف عن «الإنتاج».. وأنت تسمع هذه الأيام كيف أن الرئيس فى كل خطبة يدعو الشعب إلى زيادة الإنتاج..

وقهقه محفوظ، وتبعه جاد الله..

لكن محفوظ جرى بعيداً فجأة وهو يقول: «سعادة المدير وصل» هب جاد الله مذعوراً، وصرخ بأعلى صوته:

- تمام...

كل مسجون يدخل زنزانته..

اشتد شحوب وجهه، حتى كاد يغمى عليه، كان يرمق المدير يتجول فى الدور الأرضى وحوله نخبة من الضباط، وأصوات الصفارات تتردد هنا وهناك، أمسك جاد الله بالسور الحديدى حتى لا يسقط، كان فى الدور الرابع، وداهمته الهواجس، يكاد المريب يقول خذونى، خيل إليه أن دموعه تسقط على الرغم منه، لكنه تماسك، ووجد نفسه يردد على الرغم منه: «يا رب اجعله خيراً..

تُرى لماذا أتى اليوم؟»، ماذا جرى؟ ليست هذه أول مرة يتجول فيها المدير فى أنحاء السجن، حانت منه التفاتة إلى الأمباشى حسنين، كان يقف هادئًا متزنًا، يبدو عليه عدم الاهتمام أو الاكتراث.. وراود جاد الله خاطر.. إن راحة البال تساوى ملايين الجنيهات..

ورفع المدير رأسه إلى أعلى، وبحركة لا إرادية فعلت الكوكبة التى حوله مثلما فعل، ظن جاد الله أنهم ينظرون إليه، ظل واقفًا متصلبًا رافعًا يده بالتحية، وأخذ قلبه يدق كأنه فى سباق جاد.. مرت به لحظات لم يعد يشعر بشىء.. كان كالنائم.. لكنه سرعان ما أفاق.. وعندما عاد ينظر إلى الساحة الأرضية وجد المدير وجماعته يغادرون العنبر.. وسمع اصطكاك الباب الحديدى الخارجى.. تنهد فى ارتياح عميق... جر ساقيه صوب مقعده الخشبى وارتمى خائرًا، والعرق يتقاطر على جبينه.. أى عذاب وأى ذل!!

عندما يطمئن على مستقبله، ويصبح معه قدر من المال يكفيه. فسوف يستقيل.. سوف يحرر نفسه من هذا الذل.. لكن متى؟؟ الأيام تمر بطيئة، وهو يتعجل لكن إنتصار علمته أن فى العجلة الندامة..

جاء إليه صديقه الأمباشى حسنين وقال:

- «يبدو عليك التعب..».

نظر جاد الله في امتنان قائلاً :

- «لا أنام جيدًا . . » .

قال حسنين في ود ومحبة :

- من «الزفت» الذي تتعاطاه . . .

- «حسنين . . لا تقل هذا الكلام . . » .

- «إنه يقتلك ببطء . . » .

- «إني لا أجد ما آكله ، فكيف تظن أني أشترى ال . . » .

- «الكيوف -وأنت تعرف- تقصف العمر ، وتذهب العقل . . وهي حرام شرعًا . . » .

وقبل أن يعلق جاد الله ، وجد يد حسنين تلامس جبينه ويهمس في حنان بالغ :

- «حرارتك مرتفعة» .

- «لا أعرف . . » .

- «اذهب إلى طبيب السجن ، وخذ دواء وراحة اليوم . . » .

وجره حسنين بالرغم منه ، ومضى جاد الله إلى جواره كطفل وديع ، أدرك أن مفاصله لا تقوى على حمله ، وأن ظهره يؤلمه أشد الألم ، وأن مجال الرؤية أمام عينيه يضطرب ، تمتم :

- «أكاد أسقط . . » .

قال حسنين وهو يحتضنه :

- «استند على ذراعى . . عندما تعود إلى البيت وتشرب كوبًا من الليمون، وتأخذ قرصين من الأسبرين وتنام . . بأمر الله ستشفى، لا تخف . . » .

كان يومًا شاقًا، أدرك فيه جاد الله أنه أبسط مما يتصور، وعكة مرضية جعلته عاجزًا مقهوراً، داخله رعب قاتل، وصرخ :

- «أخاف أن أموت . . » .

ردت ميمونة بثقة :

- «لا يموت أحد من الملاريا . . » .

- «جسدى كله كان يرتجف . . » .

- «هذا عرق العافية . . » .

- «جففى هذا العرق . . وأزيلى عنى الغطاء . . أضيئى النور يا ميمونة . . إنى الآن أخاف الظلام . . لكأنى فى قبر . . » .

حينما اتضحت معالم الأشياء فى الغرفة الصغيرة بعد الإضاءة، فتح عينيه فرأى «شادية» ابنته وإخوتها يبكون فى صمت . . اجتاحته مشاعر عاتية . . أخذ يهذى ويبكى كطفل . . قالت زوجته وهى تحاول التخفيف عنه :

- «أنسيت أنك وحش السجون. .».

لطمها بعنف، وهو يهدر:

- «اصمتى يا حمارة. . لا أريد أن أسمع هذا الآن. .».

بعد ساعة ذهبت النوبة، واستعاد الكثير من نشاطه ووعيه، لكنه كان يشعر بالإرهاق، وقدمت له ميمونة وجبة خفيفة، أخذ يمضغ دون شهية، والأولاد يجلسون فى صمت. . دق الباب. . خرجت ميمونة لتفتح. . وبعد لحظات كانت إنتصار أمامه، لقد تلفعت بعباءة سوداء، وغطت وجهها بخمار رقيق أسود، وبدا جمالها مثيرًا فاتنًا لم يستطع الخمار أن يطمسه. . أدركت على التو أنه مريض. . تمنت له الشفاء فى كلماته قصيرة، قال جاد الله لميمونة:

- «أحضرى الشاى. . وخذى الأولاد معك. .».

عندما أصبح جاد الله وإنتصار وحيدين، أخرجت له لفافة ورمت بها أمامه، تمتم:

- «خمسمائة جنيه. .».

ردت:

- «وعشرون. . حقى وحقك. .».

نسى الداء والخوف والذل والمدير وحسنين. . شملته فرحة غامرة أنسته كل شيء سوى أنه أصبح يملك نصف ألف وزيادة، لقد

تحقق الوعد . . أيها الحلم الذى طال . . عليك اللعنة . . تعذبت فى انتظارك طويلاً، وأنت لا ترحم . . .

همست إنتصار : - «مبسوط يا جاد الله؟».

نظر إليها بعينين تترقرق فيهما الدموع ، وكانت نظرته فيها الكثير من الامتنان والتقدير .

استأذنت فى الخروج ، على أمل لقاء قريب ، حاول استبقاءها لتشرب الشاى ، فردت قائلة :

- «التاكسى ينتظر عند ناصية الشارع . . سأنتظرك يوم الجمعة . . مساءً . .».

- «بعد خمسة أيام؟ هذا كثير . .».

- «على الأقل حتى تشفى . . وتستعيد نشاطك . .».

تسللت إنتصار خارجة ، جلس ينظر إلى اللفافة فى قداسة ، فتحها . . أخذ يلمس الجنيهات . . هذه نقود حقيقية فعلاً . . أصبح يعرف المواصفات جيداً . . جاد الله اليوم غير جاد الله الأمس . . وقدمت ميمونة بالشاى فقال لها :

- «اشربيه أنت . . واسقِى الأولاد شايًا . . لقد شفيت . . وذهبت الضيفة . .».

- «من تكون؟».

- «زوجة سجين مسكينة.. ولايا يا ميمونة.. ربنا أمر بالستر..».

وقف وسط الغرفة رافعًا هامته، خُيل إليه أن قامته قد طالت، وأنه أقوى مما مضى، على الرغم من مرور وقت قصير بعد نوبة الحمى، وشعر بأن ذهنه أكثر صفاءً وذكاءً، وعزيمته أشد مضاءً وجرأة.. أيمكن أن يفعل المال هذا الأثر كله؟ في هذه الليلة نام نومًا عميقًا، قد يكون ذلك من أثر الدواء، أو نتيجة للإرهاق الذي عانى منه أثناء النوبة، وقد يكون السبب راجعًا أساسًا لامتلاء جيبه، بهذا المبلغ الكبير لأول مرة في حياته، أعطى لأولاده أربعين قرشًا دفعة واحدة لكل فرد عشرة قروش، اعترضت ميمونة بحجة أن هذا سوف يتلف الأولاد، وسيؤثر على ميزانية البيت، لكنه عاجلها بقوله، «ولك أنت أيضًا جنيه كامل تفعلين به ما تشائين»، كانت مندهشة لما يفعل، لكنه طمأنها بأن الرزق وفير، والحال تيسرت، واصرف ما في الجيب يأتي ما في الغيب.. إنها نوبة مباغتة من الكرم، كنوبة الحمى التي اجتاحته.. لا قيمة لأي فعل كبير إلا أعقبه الرغد، ولذلك فإن الناس ينظرون إلى الأحداث والتغييرات من خلال ما ينعكس على الناس من رخاء.. كان جاد الله يؤمن بذلك. وهو الآن ينفذ ما آمن به.. ذهب إلى السجن واثقًا، لم يكن لديه أدنى رغبة في

أن يتقبل الإساءة ولا الموعظة الحسنة . . بل حتى الأوامر الرسمية، فى السجن ضباط يستدينون ويعملون جمعيات لفك الأزمات المالية، والكبار منهم يقبلون الهدايا القيمة . . كلهم عبيد المال . . وأثناء تفتيش السجانة كان يقف ثابتًا واثقًا دون اكتراث . . ودخل العنبر كسلطان . . استقبله محفوظ بعد فتح الباب بابتسامه واسعة يدرك جاد الله معناها جيداً . . وهمس محفوظ :

- «أين «التموين» يا ملك؟».

- «تموين؟ ماذا تقصد؟».

- «آه . . كبرت علينا . . عندك حق . . أنسيت التموين؟».

فهم جاد الله ما يرمى إليه محفوظ، إنه نسى أن يحضر له كمية المخدرات الدورية حسب المواعيد المقررة، وقال جاد الله :

- «كنت مريضًا . . والحمى تنفضنى نفضًا . . ».

- «وشفيت عندما أعطتك إنتصار الدواء . . ».

- «أيها الخبيث . . ».

قال محفوظ وهو ينظف مقعد جاد الله الخشبى العتيق بخرقة بالية :

- «يمكننى أن أبحث عن وسيلة أخرى إذا كنت مشغولاً . . فقط أنتظر منك الإذن . . ».

التفت إليه جاد الله قائلاً :

- «هذا أفضل إلى حين . . وعندما أستجمع نفسى المبعثرة فسوف أرتب لك كل شىء ، أمهلنى أسبوعًا . . » .

كانت تراود جاد الله فكرة عن وسيلة جديدة للتهريب لا تعرضه للخطر ، وقد رأى أن يكلف أحد تجار المخدرات بالقدوم إلى السجن فى وقت محدد ، ثم يقذف باللفافة عبر السور ، وفى هذا الوقت يكون جاد الله على مقربة من الموقع فليلتقطها ، بعد أن يتأكد من عدم وجود خطر . . إنه لا بد أن يجمع بين مختلف مصادر الدخل ، ولا خوف ما دام الأمر محاطًا بالكتمان ، ومعتصمًا بالحرص الشديد . .

وجاء حسنين ليوقظه من أفكاره ، وليسأله عن صحته ، وبدا أن حسنين كان قلقًا عليه بحق ، نظر إليه جاد الله فى تقدير وامتنان ، لقد شام الإخلاص والصدق فى عباراته على الرغم مما حدث بينهما يوم دعوة الزفاف ، واعترف جاد الله بينه وبين نفسه أن حسنين هو الوحيد فى هذا المكان الذى لا يروج عواطفه كسلعة فى سوق البيع والشراء ، وأنه صاحب قلب ذهبى نادر المثال .

- «لم أحب أحدًا كما أحببتك يا حسنين . . » .

تمتم حسنين :

- «أنت أخى يا جاد الله مهما كان . . » .

جاد الله يذكر أنه ناقم على أسلوب حسنين، ويعتبر قناعته خنوعًا، وإيمانه ضعفًا، وأمانته بلاهة، واستغراقه فى العبادة هروبًا، إنه لا يتفق معه فى الهدف والوسيلة، ويخالفه فى تفسير الأمور وتحليل الأحداث، والحكم على الأخلاق، لكن جاد الله بالرغم من هذا كله يجد نفسه فى وضع يفرض عليه احترام حسنين وتقديره والثقة به، كيف لا وهو لم يلحظ فيه التواءً قط، أو يمسك عليه تصرفًا شائنًا أو غدرًا بصديق، أو خروجًا على المبادئ التى آمن بها . . ووجد جاد الله نفسه يقول:

- «أنت يا حسنين رجل آخر يختلف عن جميع الناس . . أحيانًا يخيل إلىَّ أنك هارب من الزمن القديم . . وجئت لعصرنا، كلما رأيتك تذكرت جيل الصحابة . . ».

- «أستغفر الله . . لا تبالغ . . فليغفر الله لى . . من أنا حتى تقول عنى ذلك؟؟ أنا لا أضاهى مسمارًا فى حذاء أحد الصالحين . . ».

- «أنت لا تعرف . . ».

- «بل أعرف أن الدنيا عند الله لا تساوى جناح بعوضة . . ».

- «أنت كبير . . ».

- «كل من عليها فان . . ».

ترقرقت الدموع فى عينى حسنين، وحاول أن يكمل الحديث فلم يستطع، لقد غض بالدموع، فانتزع نفسه انتزاعًا من مكانه، وهرول مبتعدًا، وهو يتمتم: «يا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف».

وثب إلى ذهن «جاد الله» فكرة، لماذا لا يشترى هدية قيمة- قطعة من الذهب مثلاً. . ويذهب لزيارة ابنة حسنين؟ هذا أقل ما يجب.

●●



استطاع جاد الله أن يشترى البيت الموعود، ويكتب العقد الابتدائى، أصبح من ذوى الأملاك، إنه يحمل الآن مؤهلاً أفضل من أى مؤهل جامعى، الجامعيون مفلسون ومرتباتهم تنفذ قبل الأسبوع الأول من الشهر، ويتعلقون بمداخل الحافلات والقطارات والترام، وأصبح الزواج والشقة وشراء بدلة جديدة من الصعوبات الكبيرة . . البيت قصرٌ صغير . . جاد الله اليوم أصبح باشا صغيراً . . وغداً يكبر، ماذا جرى؟؟ هل اختل نسق الحياة، أو خربت مصر لمجرد أنه زيف كمية من الأوراق المالية؟ إن الناس ينفقون آلاف الملايين لكن جملة ما زيفه جاد الله مجرد قطرة فى بحر، هذه القطرة أحيت الموات وبعثت الأمل، وردت إلى إنسان آدميته واعتباره وكرامته . . ولم يبخل جاد الله على أولاده، فقد اشترى لهم الملابس الجديدة، واشترى لميمونة بالذات فستانًا من القطيفة السوداء، كما اشترى سريراً جديداً وبعض الأرائك الجيدة . . وتشجع واشترى تلفزيونًا أحدث دويًا فى أنحاء عزبة السجانة . .

وأتى الناس يهنئونه . . كان يقدم لهم الشربات ، ويفسح لهم المكان كى يشاهدوا مباراة كرة القدم ، وكان جاد الله فى الحقيقة لا يتعصب لأى ناد من الأندية الشهيرة ، كان يقول -إذا ما سئل عن ذلك -إنه مع الغالب دائمًا . . إنه يشجع النادى الذى يلعب أفضل فى المباراة حتى لو كان ناديًا أجنبيًا ، سأله ابنه :

- «أنت زملكاوى أم أهلاوى يا بابا» .

قال وهو يقهقه :

- «أنا زمهلاوى يا ولد» .

وكعادته دائمًا فى فلسفة الأمور أخذ يشرح لضيوفه المشاهدين وجهة نظره بخصوص مباريات كرة القدم ، قال :

- «الملعب كالحياة . . يفوز من يخطط ويراوغ وينتهز الفرصة . . ولا مانع من أن يلجأ إلى العنف والخشونة عند الضرورة حتى ولو تسبب ذلك فى كسر خصمه ، أو تعريضه للتهلكة . . الخائف المرتبك البطىء لا يمكن أن يسجل هدفًا . . والناس تهتف وتصفق للغالب . . ويقذفون المهزوم بالأحجار ويلاحقونه بأقذع الشتائم . . الكرة كالسياسة . . ولذا نسمع عن الكرة الإنجليزية . . والكرة الإسبانية . . والمجرية . . أما الكرة المصرية فليس لها مستوى معروف . . تعلو وتهبط . . الفول الطعمية تثقل على المخ . . يفتقدون روح التعاون . . كل واحد يريد الفوز

لنفسه لا لفريقه . . نستطيع أن نتفوق فى حمل الأثقال . . أما الكرة فلا . . على الأقل فى هذه الأيام . . هذا كلام سمعته عن الكرة من ضابط كان يلعب قديمًا» .

قال أحد الجالسين :

- «يا جاد الله استمع بالمباراة وكفى . . »

حينما ذهب جاد الله لإنتصار بعد أسبوعين من بدء العمل المشترك ، أثنت على همته فى العمل ، وطمأنته على أن الأمور تسير فى مجراها الطبيعى دون أية منغصات أو متاعب ، لكنها عتبت عليه لأنه اندفع إلى بعض التصرفات التى تثير التساؤل ، وخاصة قيامه بشراء البيت الجديد والملابس الجديدة لأهل بيته ، والتلفزيون الذى يزعق صباح مساء ، قال فى دهشة :

- «وكيف عرفت موضوع البيت . . » .

- «أنا لى جهاز مخابرات . . » .

- «تتجسسين علىّ . . » .

- «لا بد من ذلك ، إنه مصيرنا ومصيرك . . » .

- «لم أكن أتصور الأمر على هذه الصورة . . »

صبت له كأسًا من الوسكى ، ووضعت أمامه طبقًا من المزة ، نظر إلى وجهها المثير الذى يصرخ بالفتنة المجنونة ، وإلى عينيها

اللتين تحملان ألف تعبير وتعبير، ثم أمسك بذراعها العارية كوحش ضارٍ وقال:

- «لن تخدعيني هذه المرة..».

قالت وهى تغمغم:

- «لا تنسَ أننى أنا الرئيسة.. وأنا أقرر..».

قال محذرًا بسبابته:

- «إلا فى هذه الأمور..».

قالت بثقة:

- «بل فى كل شىء.. الرئاسة لا تتجزأ..».

هتف ذليلاً:

- «وأنا عبدك المطيع..».

- «أيها الوحش الماكر..».

كانت كلمة «الوحش» تثير فيه أبشع الغرائز وأحطها، وتهيمن على كيانه كله، فيتحول إلى حيوان، إنها مفتاح شخصيته.

والمقولة التى تحرك زناد مشاعره وعنفه الروحى والجسدى، فهبّ واقفًا فى تحفز، ورآها تنفلت إلى الداخل، فقذف فى فمه بما تبقى فى الزجاجة من خمر، ثم جرى خلفها، وعندما وصل غرفة

النوم، تسمر لحظات أمام المشهد المثير وهى تزتمى على الفراش الوردى، والنور الأحمر يشعل المكان بخيالات نارية . .

وجدت صعوبة كبيرة فى أن توقظه قبيل الفجر، كان يغط فى نوم عميق، لكنها صبت الماء البارد على رأسه ووجهه بغزارة حتى انتقض جالسًا، وصرخ :

- «ماذا؟؟» .

- «لا بد أن ترحل الآن . . » .

- «بل سأنام حتى الصبح . . » .

- «مستحيل . . ولا بد أن تذهب إلى عملك فى الموعد المحدد . . » .

- «لم يعد يهمنى العمل . . » .

- «هذا أكبر خطأ ترتكبه فى حياتك . . » .

- «حياتى كلها . . أخطاء . . فماذا سيحدث؟» .

- «معنى ذلك أنك تخرق الاتفاق الذى تعاهدنا على تنفيذه . . » .

لم يجد مناصًا من أن ينصاع لأمرها الصارم، ارتدى ملابسه فى تكاسل، كانت رأسه ثقيلة تتطوح دون إرادة، وكانت خُطاه المضطربة تميل به يمينًا ويسارًا، هتف :

- «إنه إصرار غريب منك . . كيف أصلُ وأنا على هذه الحالة . . » .

رتبت على كتفه فى ودّ وهى تبتسم وقالت :

- «لقد أعددت لك كل شىء . .» .

- «ماذا تعنين؟» .

- «التاكسى ينتظر بالباب . .» .

- «كيف؟» .

- «لا تسأل . . لقد أعددت كل شىء . .» .

جلس منزويًا فى المقعد الخلفى ، لم يستطع أن يتبين وجه السائق الذى لف رأسه ووجهه بشال صوفى سميك ، بحيث لا تظهر إلا عيناه الحادتان ، قال جاد الله وهو يغالب النعاس ، وتخرج الكلمات النافرة . . منفردة :

- «عزبة السجانة . .» .

رد السائق باقتضاب ، ودون أن يلتفت إليه :

- «أعرف . .» .

توقف السائق قبالة منزلة ، ثم أسرع بفتح باب السيارة ، وجذب جاد الله بسرعة وساعده فى الوصول إلى الباب ، ثم دق له الجرس ، وانصرف مسرعًا ، تلقفت «ميمونة» زوجها المتهالك وهى تنظر إليه فى دهشة قائلة :

- «أين كنت؟».

- «أوه.. هذا السؤال السخيف لا أحب أن أسمعه..».

- «لكنك فى..».

مد يده وسد فمها قائلاً:

- «كنت فى الحضرة.. عند الشيخ البحيرى.. مع حسنين.. هل استرحت؟».

نظرت إليه فى شك.. وسار فى الممر الخافت الضوء.. وما إن وصل إلى سريره حتى ارتمى عليه بكامل ملابسه وحذائه.. قالت ميمونة:

- «لا أصدقك..».

- «إلى جهنم وبئس القرار.. دعينى أنم..».

كان السجن يموج بحركة غريبة فى الصباح، وانتصب جاد الله كعمود من الخشب وسط الطابور الطويل للسجانة، لكنه لاحظ وجود المدير نفسه والضباط، وبعض كبار رجال المصلحة:

- «ماذا يجرى يا حسنين؟».

- «اصمت..».

- «يجب أن نعلم..».

- «وصلت إخبارية للمصلحة عن عمليات تهريب للمخدرات إلى السجن، فأحضروا عددًا من الكلاب البوليسية ...».

أفاق جاد الله من النعاس الذى يغالبه، وتنبهت كل خلية عصبية فيه، وأخذ يمسح المكان بعينى صقر، وقال حسنين فى خوف:

- «احذر يا جاد الله.. المسألة جد..».

تنهد جاد الله فى ارتياح وقال:

- «اطمئن..».

- «ولا حتى رسائل مهربة..».

- «ولا رسائل.. أتظننى أفعل شيئًا كهذا؟».

نظر إليه حسنين فى ريبة:

- «ربنا يستر..».

وجاءت الكلاب لتتشمم السجانة، وأطالت الوقوف قليلاً لدى جاد الله حتى جف ريقه «يا إلهى.. أيمكن أن أكون قد نسيت قطعة أفيون أو حشيشة فى جيبى؟؟ مستحيل.. أنا واثق.. إلا إذا كانت الكلاب تشم ما يسرى فى الدم..»، وتقاطر العرق على وجهه، وبدا عليه مزيد من الشحوب والارتباك، وتقدم المدير نحوه:

- «لماذا تخاف هكذا..».

- «أنا طبيعى يا باشا أخاف من الكلاب . . » .

صاح المدير بحزم :

- «فتشوا هذا العسكرى بدقة . . » .

وأخذوا يخلعون ملابس جاد الله قطعة قطعة، حتى بقى السروال القصير الذى يستر عورته، وبحثوا فى الجيوب والبطانات والثنيات، بل أمروه بأن يتبرز فى مكان منعزل تحت إشراف أحد الضباط مخافة أن يكون قد أخفى شيئًا فى الجزء الأخير من أمعائه كما يفعل بعض المسجونين . . ومرّ الأمر بسلام . . لكنه استشعر المهانة القاتلة، وأخذ يرتدى ملابسه فى عصبية ظاهرة، والغضب يرتسم على وجهه، وكان يتمتم :

- «أهذه هى المكافأة التى نأخذها من المصلحة بعد ذلك العمر الطويل فى الخدمة؟؟ مأساة!! طيب يا زمن!!» .

صاح المدير فى حدة : «ماذا تقول؟؟» .

- «أبدًا يا باشا . . » .

- «امشِ إلى العنبر . . » .

حينما وصل إلى العنبر كان فى غاية من الإعياء لا مثيل لها، وشعر أنه فى مسيس الحاجة لأن يبكى، وأن يضع رأسه على كتف حانية كيما يشعر بالاطمئنان والراحة، وألقى بجسده المنهك على

المقعد الخشبى العتيق الرصاصى اللون، الذى يشبه فى لونه حدقات أعين الموتى، ونظر إلى السياج الحديدى أمامه، وجال برأسه خاطر عابر حول أولئك المسجونين الذين يصيبهم اليأس، ويفقدون القدرة على الصبر، فيقذفون بأنفسهم إلى الساحة الأرضية الصلبة الباردة فيموتون.. لكنه سرعان ما استبعد تلك الخاطرة السوداء لسبب بسيط، وهو أنه يكره الموت، ويحب الحياة رغم مرارتها، وهو الآن على أبواب السعادة التى حلم بها طويلاً.. هل نسى أنه أصبح من ذوى الأملاك؟؟ والحياة لا بد أن يكون فيها منغصات.. لكن كيف تصادف فى هذا الأسبوع بالذات أن يتكاسل عن إحضار «التموين» لمحفوظ؟؟ وفى هذا الأسبوع بالذات تأتى الكلاب.. كلاب يقودها كلاب.. كيف حدث ذلك؟ أليست مصادفة عجيبة تدعو للتساؤل؟ أيمكن أن يكون ذلك إنذارًا من الله؟ لو صح هذا الظن فمعناه أن الله كما يقول حسنين حليم.. رحيم.. ولا يغلق بابه أبدًا.. ماذا لو أمسكوا به اليوم والمخدرات فى جيبه؟؟ يا للمصيبة!! إنه يكاد يجن لمجرد التفكير فى مثل ذلك الأمر، كان حسنين يقف إلى جواره فى الطابور هادئ البال، واثقًا من طهره وبراءته، كان يردد أسماء الله الحسنى.. كان يسمعه على الرغم مما داهمه اليوم من هموم.. لعلها بركات حسنين وشيخه البحيرى.. أو لعل الله أنقذه بسبب ميمونة المسكينة، وشادية البلهاء، والأطفال الأبرياء.. لقد كان فى مستنقع الإثم أمس.. وغرق فى الخطايا

حتى أذنيه . . ولو أمسكوا به متلبسًا اليوم لكان ذلك أقل عقاب يستحقه . . وجاءه صوت محفوظ ينادى فجأة :

- «افتح لى الباب يا باش سجان جاد الله . . » .

- «اسكت الله يخرب بيتك . . الحكومة كلها هنا . . » .

وأطلت الرءوس من شرفات الزنانين ، المسجونون يسألون عما يجرى وعن سبب عدم فتح الأبواب حتى الآن ، ووقف جاد الله أمام مقعده الخشبى وقال :

- «اخرسوا جميعًا . . مدير المصلحة هنا . . والكلاب . . » .

وساد اللغط ، وأدرك المسجونون أن التفتيش على قدم وساق ، وأن الكلاب لاتجىء إلا للبحث عن المخدرات ، وتعالت «كلمات السر» فى صوت خفيض لكنه واضح ، وأغضى جاد الله عما يجرى ، فهو يفهم أن المسجونين يحذرون بعضهم البعض بخصوص ما لديهم من ممنوعات ، وضرورة التخلص منها ، فمن يدرى قد ينقض عليهم المفتشون فى أية لحظة . . وأخذ جاد الله يروح ويجىء عبر الصمت الذى ران على العنبر بعد ذلك ، وكان لوقع حذائه الثقيل صدى يتردد فى أرجاء العنبر ، وظل فى تجواله ذاك حتى أتى إلى غرفة محفوظ ثم توقف قليلاً ، ونظر إلى الشرفة الصغيرة التى أطل منها محفوظ :

- «محفوظ . . انتبه جيدًا . . حذارِ أن يكون معك شىء مخالف . . » .

قال محفوظ هامسًا :

- «اطمئن . . القحط أصاب السجن منذ أكثر من أسبوع . . » .

- «متأكد يا محفوظ؟؟» .

- «ألف فى المائة . . » .

- «الحمد لله . . » .

وعاد جاد الله يدق الأرض بحذائه الثقيل . . إنه أشد خوفًا ورعبًا من المسجونين . . مع أنه السجان . . فمن إذن لا يخاف؟؟ تساوى المسجون والسجان فى الأحزان، حتى مدير السجن الآن، وهو على رأس الجهاز الإدارى يرتعد، فلو أثبتوا مخالفة فى سجنه لرموه بالتقصير والإهمال، ولتعرض للتأنيب بل والتحقيق . . يبدو أن المسجون هو الأقل خوفًا . . فماذا به حتى لو أمسكوا به متلبسًا؟ وأتى حسنين يمشى فى اطمئنان . . قال جاد الله :

- «الكبراء كلهم هنا اليوم . . » .

- «لا كبير إلا الله يا جاد الله . . » .

- «لكننا نخاف منهم أكثر مما نخاف الله . . » .

- «لأننا ضعفاء الإيمان . . كلامك كالخنجر . . ولأن الله لا يظلم . .

وعدالته تبعث الاطمئنان فى النفس.. وليكن ما يكون... إنهم لا يملكون من أمر نفوسهم شيئًا..».

وسادت فترة صمت وتفكر قال حسنين بعدها:

- «إنهم يتأكدون من تنفيذ اللوائح والقوانين، ولهم الحق..».

- «ألا تعتقد أنهم أول من يكسر القوانين؟ إنهم أصحابها..».

- «عليك بنفسك يا جاد الله.. أقول لك.. افهم..».

- «إننا نتعلم منهم يا حسنين كل شىء..».

- «فلماذا إذن جاء الأنبياء والرسل؟؟».

- «جاءوا.. جاءوا.. أعنى..».

قال حسنين مغمض العينين، ورأسه إلى أعلى، وسبابته تشير إلى السماء:

- «لنؤمن بأن الله واحد..».

وعاد جاد الله ليجلس على مقعده، ومضى حسنين إلى حيث يعمل، كان جاد الله يفكر فيما يقوله حسنين، إنها مجرد كلمات واضحة بسيطة، لكنها كبيرة.. العالم من حوله يطفح بكل رذيلة، والليل يخفى تحت ستائره السود آلاف الجرائم، وصورة السيد والعبيد لم تتغير منذ آلاف السنين، برغم تغير المسميات والهيئات، الوزير عبد للسلطان.. والمدير فى خدمة الوزير.. وتتسلسل

العبودية من أعلى إلى أسفل . . حتى السلطان عبد لأطماعه مهما تشدق بالخطب الرنانة والمبادئ الكبيرة . . العالم كله سوق للرقيق يا حسنين . . وأنت لا تفهم ذلك يا حسنين . . لسبب بسيط . . وهو أنك تعيش فى عالم آخر غير عالمنا . . عالم البحيرى وتلاميذه . . لو كنت معنا على هذه الأرض يا حسنين لاستطعت أن تفهم كيف تشتعل جهنم، ويحترق المعذبون والمستضعفون والجياع . . فى قصر الباشا إما أن تكون حشرة . . أو ذئبًا . . أو ثعلبًا . . أو حصانًا . . لم يكن قصرًا ولكنه مزرعة للحيوانات ذات الوجوه البشرية . . وهل تختلف هذه الصورة القديمة فى ذلك القصر . . عما يحدث فى قصور اليوم يا حسنين؟ لكى تكون مواطنًا صالحًا لا بد أن تتصف بالغفلة . . لهذا دعنى يا حسنين . . دعنى لكى أعيش . . لست أنا الشاذ . . الشاذ أنت . . ولا تسألنى عن النهاية، فأنا لا أهتم بها الحياة قصيرة وستنتهى حتمًا . . فلماذا تأنيب الضمير والعذاب؟؟».

وجاءه صوت الصول من أسفل :

- «افتحوا الأبواب . . ».

وكان أول باب يفتحه جاد الله، باب محفوظ . . الذى قال باسمًا :

- «يا صباح الفل . . والورد . . والياسمين يا أحسن جاويش فى الدنيا . . ».

●●●



[١١]

ذهب جاد الله إلى قريته البعيدة بعد غياب سنين طويلة حاملاً معه بعض الهدايا لأهلة وأهل زوجه، وهى لا تخرج عن الأقمشة والفواكه والحلوى، وهو لا يسافر إلى تلك القرية إلا نادرًا جدًا، وقضى يومين يتعرف على الناس، وعلى الذين كبروا وتزوجوا، وأخذ يسأل عن أحوال القرية بصفة عامة، كيف يعيشون، وعلم أن المحصول فى هذا العام قد تعرض لآفات عدة، وأن العاملين فى الجمعيات التعاونية ينهبون ويسرقون، ولا طائل من وراء الشكاوى التى يبعثون بها إلى المسئولين؛ لأن المتهمين دائمًا يفلتون، وماذا تريد الحكومة غير الحسابات المضبوطة التى تمت مراجعتها، والحصص التموينية التى تسلم إلى أصحابها، أما الخصومات والرشاوى والاستقطاعات فليست لها فى العادة سجلات، ومعظم الفلاحين موصوفون بالأمية، إنهم يرغمون على التسليم والإذعان ما دامت تلك هى القوانين واللوائح كما يؤكد رجال الجمعية، والعمدة متحالف مع الجمعية، والجمعية جزء من «الاتحاد

الاشـتـراكى»، والاتحـاد الاشـتـراكى ينظر إلى «المخلصين» نظرة خاصة، أما ما هى مواصفات المخلصين فذلك ما لا يعرفه أحد، والفلاحون بالتأكيد لا يدخلون فى نطاق هؤلاء؛ لأنهم منكبون على أرضهم ومواشيهم وزراعتهم، وليس لهم أى نشاط سياسى، وأصبح هَمّ كل واحد منهم أن يبحث عن مخرج آخر إلى جوار الزراعة، ولا مانع لديهم من أن يسافروا إلى آخر الدنيا كى يحسّنوا أوضاعهم المالية، خلاصة الأمر كما قيل لجاد الله: إن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، وأن الشبان الذين سافروا إلى حرب اليمن ثم عادوا أحضروا معهم قدرًا لابأس به من المال، لكنهم على أية حال قلة، والذين سافروا للخدمة فى بعض البلدان العربية هم أيضًا تبدو عليهم علامات الانتعاش والتيسر، وسبحان مقسم الأرزاق.

قال جاد الله لأحد الخفراء الذين يعرفهم:

- «وكيف حال الأسعار بالنسبة للأراضى الزراعية؟».

- «كساد فى كساد.. فلم تعد تنتج ما يكفى..».

- «كم يساوى الفدان إذن؟؟».

- «من خمسمائة إلى ستمائة جنيه.. حسب المكان..».

وتشعب الحديث، وعلم جاد الله أن أحد أثرياء القرية القدامى، قد رحل نهائيًا عنها، وأنه يريد أن يتخلص من أرضه بالبيع بشرط إرضاء المزارعين، وفهم جاد الله أن المستأجرين لا يتركون الأرض

للملك بسهولة حسب قانون الإصلاح الزراعى، بل الأصح أنه لا تستطيع قوة أن تخرجهم منها، ولهذا فإن من يشترى الأرض لا بد وأن يدفع نسبة من الثمن للمستأجر حتى يخليها لمالكها الجديد، وهو أمر يتفق عليه بين الثلاثة: المالك والمستأجر والمشترى، ولم يغادر جاد الله البلد إلا بعد أن دفع العربون لشراء خمسة أفدنة دفعة واحدة، وبيت صغير متهدم على مشارفها، وعاد والعقد الابتدائى فى جيبه، وبالطبع فقد حرص على أن يقوم بزراعة الأرض لحسابه، ولا يؤجرها لأحد مطلقًا.

عاد جاد الله من رحلته الريفية الموفقة سعيدًا منتعشًا، وكان يجلس فى قطار العودة وهو لا يشعر بما حوله من ضجيج، كان سابحًا فى أحلامه الوردية، إنه يصعد سلم المجد بسرعة مذهلة، لكن يجب ألا ينسى أن أمامه مسيرة طويلة شاقة، فالبيت الذى اشتراه يجب أن يدفع المبلغ المتبقى عليه وهو فى حدود ألف وخمسمائة جنيه، والأرض لا بد وأن يدفع بعد العربون أو المقدم ألفين آخرين، بالإضافة إلى السمسرة ورسوم التسجيل ومستحقات المستأجرين، وهذا كله يعنى المزيد من العمل والإنتاج ومزيد من الحرص أيضًا وإلا فشلت كل المشاريع، وضاع كل شىء هباء، لكن الأيام تمر بطيئة مزعجة مملة، والست إنتصار ترفض بشدة أى تغيير فى حجم العمل والإنتاج والتوزيع. . إن لهفته المجنونة تنطلق به كفرس الرهان، ورزانة إنتصار تجعله يسير كحمار جائع نحيل. .

فلماذا لا يذهب إليها ويصارحها بكل شيء؟ إنها تحبه وتبش لمقدمه كلما جاء. . وتغدق عليه من المتعة والترويح ما لم يذقه في حياته الجرداء المقفرة. . جعلته يهيم في عوالم سخية فريدة هي النعيم بعينه، وعلى الرغم من حزمها وصرامتها في العمل، إلا أنها - مهما كان الأمر - امرأة. . آه لو عرف كيف يقنعها!! وآه لو عرف نقطة الضعف فيها!! إن لكل إنسان مدخلاً خاصًا يفضي إلى عوالمه الخفية، ويبين عن اتجاهاته ومصادر إسعاده وشقائه. . ليته يعرف. . ووثبت إلى ذهنه فكرة. . لماذا لا يذهب إليها الليلة قبل أن يذهب إلى بيته؟؟ لم يزل أمامه يوم باقٍ في عطلته، ولعل مصارحتها بكل شيء تجعل قلبها الطيب يميل إليَّ رأيه. . أنعشته الفكرة المباغتة، وهزت كيانه، وشعر برائحتها المميزة تلامس خياشيمه. . وأغمض عينيه وهو جالس على مقعده الخشبي في القطار، ورمى برأسه على الحاجز الذي خلفه، واندمج في أحلامه. . تُرى فيما تختلف إنتصار عن ميمونة؟ ميمونة تذكره بالرضوخ والملل والاستسلام حتى إنه في بعض الأحيان يهم بأن يخنقها، وإنتصار تغرقه في أمواج سحرية من النشوة والاستمتاع اللا محدود، إنه يرتشف كلماتها الحلوة ارتشافًا، وينظر إلى قسماتها وعينيها في وله وذوبان، ويتمنى أن يأكلها أكلاً، وأقسى اللحظات على نفسه هي لحظات الفراق. . وتمتم جاد الله «يا قلبي اللعين. . أنا لا أفهمك أشعل سيجارة، ثم أخذ يرمق الحقول التي تجري إلى الوراء عبر

النافذة . . ويعود ليحلم بقصر فى الريف . . فى عزبة خضراء تكتظ بالحيوانات والكلاب والفلاحين . . وهو واقف بينهم بعصا معوجة من الأبنوس الأسود . . يأمر وينهى . . ويصفع ويركل . . ويأكل ما لذ وطاب من الحمـــام والبط والدجـاج والسـمين . . وفى وقت الأصيل يركب جواده الرمادى اللون الذى يشبه إلى حد كبير جواد البـاشـا . . وينطلق يسـابق الريح على شـاطئ النهـر . . وأطفـال الفلاحين يفرون من أمامه مذعورين . . وبالطبع سيشترى سيارة نصف عمر لكنها أنيقة . . وعندما يصل إلى المركز، فسوف يهب المأمور لاستقباله فى حرارة، وسيقول له : «أهلاً جاد الله بك» . . نعم سوف يضفى عليه لقب «بك» على الرغم من أن الألقاب قد ألغيت . . وسيتهافت الشبان على الزواج من شادية ابنته . . وستبدو دون شك رائعـة فـاتنة . . أليست بنت جـاد الله بك؟؟ وسيـفـعل المستحيل ليدخل أولاده الجامعة بشرط أن يكون أحدهم فى كلية الشرطة . . آه . . ولن أنسى حسنين . . أبدًا لن أنساه . . فإن كـان قد مات فسأقيم له ضريحًا فى مسقط رأسه حتى يزوره الفلاحون، ويتبركون به، ويتسلون بإقامة احتفالات الموالد له، وسيكون مقصد الزائرين والدراويش من مـختلف الأنحـاء . . أما إذا ظل حسنين حيًا، فسـوف أتجنب لقـاءه . . لأنه يعرفنى جيـدًا، ويكاد يقرأ ما بداخلى، ودائمًا أشعر أننى قزم . . ضئيل، وهو عملاق هيبة . . ومع ذلك فسأرسل إليه بعض الأموال والهدايا . . لقد انبهرت ابنته

عندما قدمت لها «البروش الذهبى» بعد زواجها . . وانبهر حسنين هو الآخر على الرغم من أنه عاتبنى بعنف، وكان مصرًا على إعادته . . وأنا أفهم كيف كان يفكر . . إنه من مال حرام . . لكن كيف يجزم بذلك؟؟ وجاد الله سوف يكون له مستقبل سياسى باهر.

بالتأكيد لسبب بسيط وهو أنه «وحش السجون الحربية» الذى أدب المارقين، وسفك دماء أعداء الحكومة من شيوعيين وإخوان ووفديين وباشاوات وغيرهم، فهل ستنسى له الحكومة هذا الفضل؟؟ فما عليه إلا أن ينضم للاتحاد الاشتراكى . . ثم أمينًا له . . ثم عضوًا فى المركز . . ويعد المركز المحافظة . . ويظل يصعد سلم المجد عضوًا فى مجلس الأمة . . والانتخابات كلها «كوسة» . . بالمال تستطيع أن تشترى كل شىء . . قاعدة معروفة . . إذا عجزت عن شراء الأصوات، فبشىء من السخاء أستطيع أن أشترى القائمين على التصويت والفرز وهذا أفضل وأيسر وأسرع . . والذى يتعرض لى من المنافسين أستطيع أن . . . .

ونام جاد الله . . نام برغم الضجيج والزحام . . وانبعث غطيطه بصورة منفرة آذت مشاعر الركاب، وبدا ذلك واضحًا على وجههم وإشارتهم، لكن أحدًا لم يجرؤ على إيقاظه . . وهزوه برفق عندما توقف القطار فى المحطة الأخيرة . . وشعر أن نصف الساعة التى نامها قد بعثت فيه الهمة والنشاط، ودس يده فى جيبه

ليطمئن على «عقد الأرض» وعلى ما معه من مال. . كان يسمع أذان العشاء يتردد فى مسجد كبير، وأخذ يتنقل هنا وهناك ليلتقط «تاكسى» فيحقق له ما يريد. . الفرق شاسع بين تاكسى والقطار. . الزحام يكاد يسحقه، وأنفاس المسافرين تكاد تخنقه، وبكاء الأطفال يثير أعصابه، ونداء الباعة يخنقه، لم يعد يطيق الناس، إنه أصبح يعشق الهدوء والراحة والغوص فى ذاته، ليستخرج الأفكار، ويرتب الخطط، وينسق الأحلام الوردية التى تسعده أيما سعادة. .

ودخل عليها مبتسمًا، لكنها عندما رأته قالت فى دهشة:

- «ما الذى أتى بك الآن؟؟».

- «وهل بيننا مواعيد؟؟».

- «تعلم أن كل شىء يجب أن يكون مرتبًا. .».

قال وهو يغلق الباب، ويخطو نحو مقعده الأثير فى الصالة الصغيرة:

- «لم أعد أستطيع السيطر على نفسى. . إنى آتى إليك مشدودًا على الرغم منى. . أهو التنويم المغناطيسى؟؟ لا أدرى. .».

قالت وهى تتصنع الغضب:

- «لم يبق سوى أن تقول إنى قد سحرت لك. .».

- «بالضبط . . عيناك السحر كله . . » .

نظرت إليه بجدية :

- «اختصر . . أنا على موعد بعد ساعة . . » .

هتف فى غيرة وهو يضغط على أسنانه :

- «أهناك غيرى؟» .

- «أتظن أنه ليس على الحجر غيرك؟» .

- «بالتأكيد . . . » .

- «مغرور يا مسكين . . » .

- «لا تعذبينى يا إنتصار . . » .

قالت وهى تطوق عنقه فى ود :

- «يا مجنون . . أنت الوحيد وكلهم «ركش» . . . » .

- «سلمت لى . . » .

هبت واقفة ، وفكرت برهة ثم قالت :

- «إن لدى عملاً . . » .

- «أين؟» .

- «لا تسأل . . » .

خطا نحوها، وأمسك بكتفيها وقال:

- «وأنا لن أغادر هذا المكان ظامئًا محرومًا. . ».

أخذت تروح وتجيء، وتضرب بكفها على جبهتها:

- «تعلم يا جاد الله أن مسئوليتى كبيرة. . ».

انقض عليها كنمر، واحتواها بين ذراعيه وقال:

- «لن تفلتى. . . ».

نطحته برأسها وهى مستغرقة فى الضحك، ففك حصاره ووقف ينظر إليها مأخوذًا، وقال:

- «لو أن عقلك هذا فى بلد آخر غير بلدنا لأصبحت رئيسة للوزراء، أو على الأقل وزيرة. . فى الهند وإسرائيل المرأة الممتازة تصبح رئيسة للوزراء. . أما المرأة الممتازة عندنا تصبح رئيسة عصابة». .

عادت تقهقه:

- « أيها المجنون. . ».

- «لا أقول إلا الصدق. . ».

- «لكنى لا أحمل مؤهلات يا جاد الله. . فقط الابتدائية. . ».

عاد ينظر إليها فى انبهار. . ثم تحسس شعرها، وكتفيها، واقترب من صدرها، وهو يقول:

- «هذه أروع مؤهلات رأيتها فى حياتى . . » .

دفعته فى صدره بعنف وشدة لم يغضب لها وقالت :

-«احتشم أيها الملعو ن . . . » .

ثم ألقت بجسدها فوق مقعد قريب، شردت قليلاً، بدا على نظراتها غير قليل من التأثر والحزن الدفين :

- «حين كنت فى الخامسة عشرة سقطت ضحية العبث . . كان فتى وسيمًا أشقر الشعر ابن جار صديقة أمى . . المهم رحلوا عن حيّنا . . وتركت المدرسة . . وذهبت لأتعلم الخياطة . . لم يكن لدى صبر . . كنت أريد أن ألعب ألهو وأذهب إلى السينما والمتنزهات . . كان أبى قد مات . . فكرت أن أكون ممثلة . . لعبت بعض أدوار «الكورس» . . ولم أنطق بكلمة واحدة فى أى فيلم من الأفلام . . ووراء الكواليس أعطونى الوعود الكثيرة . . ودفعت الثمن مرارًا وتكرارًا . . لكنهم خدعونى . . لهذا أصبحت أحتقر الفن . . وأكره الذهاب إلى السينما . . لم أعرف الفن إلا من الجانب الآخر . . جانب الدعارة . . ولم أعرف أبدًا الوجه الآخر، عندما أرى صور النجوم، وقصص حبهم وغرامهم أضحك . . لأنى أعرف الحقيقة . . وفكرت أن أتاجر فى السمك . . للأسف الحصص تعطى لمن يدفع أكثر . . وإذا اعتمدت على التسويق بنفسك . . أمسكوا بك لمخالفة

التسعيرة. . فكرت فى السرقة وجدتها مهنة حقيرة لا جهد يذكر فيها. . قلت: أفتح دكانًا للبقالة. . لكن أين الخلو. . وحصص التموين؟؟ وجدت كل شيء معقدًا. . أتعرف من الذى أخذ بيدى وأنقذنى من كل تلك العقد؟؟

قال جاد الله مشدودًا:

- «من؟؟».

- «محفوظ. . وجدت الأمر سهلاً. . وهكذا التقينا يا جاد الله. .».

- «لكن ما مناسبة هذا الكلام. .».

- «أحيانًا أشعر بأنى سأنفجر. . ولا بد أن أنفث عن نفسى، كان محفوظ يخفف عنى. . لكنه ذهب. . ولكن أتيت أنت. . وأنت مثل محفوظ تمامًا. .».

نظرت إلى ساعتها وقالت:

- «سوف أسمح لك بالانتظار حتى أعود. . لكن حذار. . لا تفتح الباب لأحد. . ولا يصدر عنك صوت. . لن تستغرق مهمتى أكثر من ساعة، التاكسى لا بد وقد حضر الآن. .».

قال جاد الله:

- «إلى أين؟ أريد أن أعرف. .».

- «من الأفضل ألا تعرف. . اطمئن. . ».

- «أمرك يا ست الكل. . ».

- «يا حلو ليلتك فل. . ».

وما إن خرجت حتى خلع ملابسه، وذهب إلى دورة المياه، ثم عاد لينفث دخان سيجارة فى هدوء وانتشاء، وهو يحاول أن ينسى هواجسه وأوهامه، بل ينسى الدنيا كلها. . لكنه عاد يتمتم:

- «كل الناس مآسٍ وتاريخ أسود. . إلا أنت يا حسنين أنت وزوجتى ميمونة. . ومن الناس من تأتى مأساته فى البداية، ومنهم من تأتى البلوى إليه فى النهاية. . الباشا ولد فى فمه ملعقة من ذهب. . ثم جاءت الثورة وأطاحت بكل شىء. . وأنا على النقيض منه تمامًا. . ترى أكان يمكن أن أرضخ للمأساة فى البداية. . وفى النهاية؟».

وهرول جاد الله إلى الداخل باحثًا عن زجاجة ويسكى، وجلس وحده يشرب، وأخذ يدندن بعض الأغنيات، ثم توقف عن الغناء فجأة وقال:

- «سيأتى إلىَّ الباشا باحثًا عن عمل. . . لا. . الباشا مات. . قد يأتى أحد أبنائه أو أحفاده. . سأقول له ليس عندى سوى «إسطبل الخيل». . فإن كان لديك خبرة كافية فلا مانع من أن أعينك فيه

بمرتب جيد . . ها . . ها من يدرى قد لا توافق إنتصار على ذلك . . ستكون سيدة القصر لا محالة . . أما ميمونة . . آه . . ميمونة . . هل أطلقها . . حرام . . سوف تبقى . . أنا أعرفها . . لا تعرف التمرد أو المشاكل . . لا تخافى يا ميمونة لن أقصر فى حقك أبدًا . . لكن المشكلة يا ميمونة أن إنتصار متزوجة من محفوظ . . . لا بد من البحث عن حل لمحفوظ إنه كالعظمة فى الزور . . . لم أعد أطيقه . . . لماذا لا يموت ويريحنى؟ يا ويلى إن خرج وأخذ إنتصار . . . إذا أفرج عن محفوظ فسوف يتدمر كل شىء . . . محفوظ خطر . . . ولا بد أن يبقى فى السجن على الأقل . . . أو تطلب إنتصار منه الطلاق . . . محفوظ سبب سعادتى . . وشقائى أيضًا . . والتخلص من الشقاء يقتضى التخلص منه، بأى وسيلة . . . يسقط محفوظ . . يسقط محفوظ . . يسقط الخونة . . الموت للخونة . . .

كان يهتف بصوت مرتفع، عندما دخلت إنتصار وأغلقت الباب على الفور، وأسرعت إليه :

- «ماذا فعلت أيها المجنون . . أغلق فمك وإلا ضعنا . . ».

وأسرعت بحمل الكئوس والزجاجة الفارغة وبقايا الطعام، عادت إليه تجره جرًا إلى غرفة النوم، وهى تسد فمه . .

قال :

- «إذن اهتفى معى يسقط محفوظ . . ».

- «يسقط محفوظ . . ».

- قولى أيضًا : «يسقط المدير وكلابه».

- «يسقط المدير وكلابه».

- «تسقط الحكومة . . ».

- «يا للمصيبة ! ! اصمت . . ».

- «يسقط حسنين . . ».

- «يسقط حسنين . . ».

- «حسنين والشيخ البحيرى . . ».

- «حسنين والشيخ بحيرى . . من بحيرى هذا؟؟ . . أرجوك يا جاد الله . . لا تفضحنا . . لا يعرفنا أحد هنا ، ولا صلة لنا بالجيران . . ».

- «إذن تعالى هنا . . ».

- «جئت . . ».

بعد ربع ساعة كان يغط كثور ذبيح ، وأخذت إنتصار تفتش جيوبه ، فوجدت عقد الأرض وقليلاً من الأوراق المالية الصحيحة ، واطمأن قلبها حينما تأكدت أنه لا يوجد معه أية أوراق زائفة . . وقررت أن تدعه ينام الليلة بكاملها . .

في الصباح قالت بغضب:

- «لقد تجاوزت الحدود عندما سكرت..».

- «لم أدرِ ماذا حدث..».

- «حدثت كوارث لولا لطف الله..».

- «كنت أريد أن أنسى..».

- «لكنك تذكرت.. وطفحت بالماضي وبالمختبئ كله..».

- «المهم أنني لم أشعر بشيء..».

- «لو فعلتها مرة أخرى، فلن تراني أبدًا..».

ألقى باللقمة من يده، وهتف في رعب:

- «كنت أنتحر.. حياتي بدونك لا معنى لها.. لكن أعدك..».

●●●



أفاق حسنين من نومه على صوت المؤذن يقول: «سبحان من أمات الليل وأحيا النهار»، ومسح على وجهه وهو يتمتم «أصبحنا وأصبح الملك لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» ثم نادى على امرأته.. أم محمود كي تستعد للصلاة، وكان في عجلة من أمره، إذ لا بد أن يسرع بالذهاب إلى المسجد حتى يلحق بالجماعة الأولى، لقد قضى أكثر من عشرين عامًا وهو يحافظ على صلاة الفجر، وكان يوقظ زوجه وفريدة ومحمود، إنه يتذكر كيف أن فريدة الصغيرة كانت تقف منذ الخامسة من عمرها، وترتدى زيها الإسلامى، وتقف كالملاك الطاهر تؤدى الصلاة، ويتذكر أخاها محمود ذلك. وظل العهد بهم جميعًا حتى اليوم.. إنه أمر يثلج فؤاده، بل يراه حسنين أنه أثمن من الدنيا وما فيها.. وبعد الصلاة يتناولون طعام الفطور، ثم يذهب كل لحال سبيله.

عندما عاد حسنين من الصلاة قال:

- إيه . . . ستسافر فريدة وزوجها اليوم إلى ليبيا . . أشعر أن قلبى معهما فى الغربة . . ».

بكت الزوجة فى صمت، ولاحظ حسنين قطرات الدمع الفضية تتساقط من عينيها فى لمحة خاطفة، على الرغم من أنها كانت تحاول إخفاءها . .

قال حسنين والدموع فى عينيه هو الآخر :

- «لِمَ تبكين؟؟ يجب أن تزغردى . . ».

نظرت إلى الدموع فى عينيه قائلة :

- «اسأل نفسك . . ».

حاول أن يقلد النساء فى الزغرودة وهو يقول :

- «انظرى . . سوف أزغرد»، لولولو . . ».

وأخذ يضحك ويقهقه والدموع فى عينيه، عندئذ لم تستطع الزوجة أن تكتم شهقات البكاء، فتركها حسنين كيمًا تنفث عن عواطفها الجياشة، وأخذ يشرب الشاى الساخن بينما تناول من آن لآخر قضمة من ساندويتش الفول، ويحاول أن يبتلعها فى صعوبة، وقالت زوجته وقد أشرق وجهها بالفرحة المباغتة :

- «سوف تصبح جداً بإذن الله يا حسنين . . نسيت أن أخبرك أن فريدة حامل . . ».

بدت السعادة والارتياح على وجهه وتمتم:

- «الحمد لله.. سوف يصبح لنا أحفاد.. طالما دعوت الله أن يرزقنا بالذرية الصالحة.. لقد ذهب العمر يا أم محمود..».

- «أطال الله عمرك.. ما زلت شابًا..».

ابتسم فى نقاء وحب وقال:

- «أتشهدين بذلك؟؟».

- «وأبصم بالعشرة..».

وعاد يقهقه ويقول:

- «أيتها العجوز الماكرة..»

اقتربت منه ثم توقفت أمامه بوجهها الصبوح المؤمن وقالت:

- «أترانى عجوزًا؟؟ هل هذا صحيح يا حسنين؟؟».

أمسك بذقنها مداعبًا وقال:

- «بل شابة فى سن العشرين.. أنت أغلى عندى من كل هذه الدنيا.. إننى أغار عليك، ولذا لا أتركك لتخرجى وحدك.. وعندما أرى رجلاً يختلس النظر إليك أكاد أن أخزق عينيه..».

قالت وهى تربت على رأسه العارية:

- «إذن ستأخذنى معك إلى المطار..».

وأخذت زوجه تتحدث عن خراب الذمم، وجشع النفوس، والأنانية المسيطرة على سلوك الناس وتصرفاتهم، واللجوء إلى الغش والتدليس لجمع المال، وعدم الاهتمام بالحلال والحرام.. ثم كفت عن الاستطراد فجأة، وقالت وهى مندهشة:

- «هل علمت بالخبر الغريب؟؟».

- «ماذا؟؟».

- «قالوا إن جاد الله اشترى بيتًا على ناصية شارعنا..».

قال حسنين فى هدوء:

- «لم لا؟؟ إنه يجمع المليم على المليم.. ويدخر ما وسعه الجهد..».

- «هذا غير معقول.. إن ثمنه حوالى ثلاثة آلاف جنيه يا حسنين..».

حدق فيها باهتمام وتمتم:

- «الناس يبالغون..».

لقد جاء صاحب البيت المباع يسأل عنه، وكان معه سمسار وروى كل شىء ببساطة..».

هز كتفيه فى قلق وقال:

- «ربما..».

- «إنه بعيد، وسأنوب عن الجميع . . » .

وأصرت على الذهاب معه، فوافق بعد تردد، وأخذا يتحدثان عن ليبيا ومشاريع شركة المقاولين فيها، والثقة التى تضعها الشركة فى كفاءة زوج ابنته، والمرتب الكبير الذى سوف يتقاضاه بالعملة الصعبة، وقال لزوجه: لا يصح أن نقلق على مستقبل فريدة، فإنها فى العطلة الصيفية، ويمكنها أن تقضى أربعة أشهر على الأقل ثم تعود لمواصلة دراستها، فضلاً أنها لن يتم توظيفها إلا بعد التخرج، وقد أخذ زوجها وعداً بتعيينها معه فى الشركة، وهذا فضل كبير من الله . . ، وقالت أم محمود:

- «سوف يكون لديهما ما يكفيهما من الدخل بإذن الله . . » .

قال حسنين فى ثقة:

- « الرزق بالبركة وليس بالكثرة يا امرأة . . » .

- «معلوم . . » .

- «وقد أوصيتهما بإخراج الزكاة . . كان أبى الفلاح -رحمه الله- يخرج زكاة المحصول فى الحقل نفسه . . أى قبل أن ينقله إلى المنزل . . وأذكر أن جدى أيضًا كان يفعل الشىء نفسه . . إن الزكاة ركن من أركان الإسلام . . لكن الناس فى أيامنا لا يبالون . . لو دفع أصحاب الملايين حقوق الفقراء لما بات فى هذا العالم جائع . . » .

أردفت قائلة:

- «والعياذ بالله يقولون إنه يتاجر فى المخدرات..».

صرخ حسنين كمن لدغه عقرب:

- «اتقى الله يا امرأة.. هذه هى الغيبة بعينيها.. وهى إحدى الكبائر التى نهى عنها الله..».

- «وما ذنبى؟؟ الناس فى عزبة السجانة يقولون ذلك..».

قال وهو يلوح بيده محذراً:

- «لا تدرين ما يقولون.. فهم يجعلون من الحبّة قبّة..».

- «أستغفر الله..».

وساور حسنين القلق، كان ميالاً لتصديق ما ترويه زوجه، وكان مبعث قلقه الخوف على جاد الله، وأسرته المسكينة، والواقع أنه لا يمكن تفسير هذا الحدث المهم على ضوء إمكانات جاد الله المادية، ومع ذلك فلا بد من التروى، والتأكيد من جاد الله نفسه، وإيصائه بالحيطة والحذر. فستراقبه العيون بعد ذلك، بل إن حسنين يعتقد أن الكلاب البوليسية لم تأت إلا بسبب وشاية ضد جاد الله، وقد نجاه الله بالصدفة المحضة.. وحسنين يعرف ما يفعله جاد الله.. وكثيراً ما حذره من ذلك الفعل الخطر، وخاصة أن جاد الله كثير الأعداء، ومكروه من عدد كبير من السجانة ومن المسجونين أيضًا، وتحوم

حوله الشبهات من قديم، وعندما يشاع أنه اشترى بيتًا، فسينقض عليه الأعداء من كل جانب، وسيبحثون له عن مصيبة تقضى عليه، وعلى مستقبله، ولهذا قلق حسنين بشدة.. وأخذ يستجير الله.. ويضرع إليه أن يسبل ستره عليه وعلى أسرته..

كان جاد الله مكبّاً على مقعده الخشبى، مستغرقًا فى التفكير، وجاء إليه حسنين والقلق العميق بادٍ على وجهه، وهتف:

- «أفقْ يا جاد الله..».

رفع إليه عينين محتقنتين، والنوم عالق بأهدابهما المتسخة، وهز رأسه:

- «ماذا تقول ياحسنين؟».

- «يا نايم.. قم وحد الدايم...».

قال جاد الله وهو يفرك عينيه، ويبتسم فى بلاهة:

- «حى...».

دفعه حسنين فى خشونة بيده.. وتمتم:

- «هل صحيح ما قالوه؟».

- «لا أعرف بالضبط ماذا تقصد..».

- «البيت الذى اشتريته يا جاد الله...».

الجلالة.. ثم لا تثور إلا حول المسكين.. العريان جاد الله؟؟».

لم يجب حسنين، بينما أخرج جاد الله سيجارة من جيبه وأشعلها وهو يقول:

- «القانون يبحث عن الضعفاء أمثالنا يا حسنين.. والغيلان ترتع في كل مكان.. سمعت المأمور يقول يومًا: القانون مثل خيط العنكبوت لا يصطاد إلا الضعفاء.. كن غولاً حتى لا يتهمك أحد..».

فكر حسنين فيما يقوله جاد الله، إنه صحيح في عمومه، فالفساد قد عم، وليس جاد الله وحده هو المجرم العتيد الذي يستغل الشعب، ويمتص دماء التعساء يا إلهي.. إن جاد الله يحسن صياغة الكلام، ويعبر عن آراء جريئة تصدم من يسمعها، وتجعله أحيانًا لا يستطيع الرد

- «ليس الأمر مجرد بيت اشتريته..».

- «ماذا بعد؟».

- ظن أنه سوف يكشف عن شرائه للأرض الزراعية التي لا يمكن أن يعرفها أحد، وارتاح حينما سمع حسنين يقول:

- «يتهمونك بالإتجار في السموم..».

- «السموم!!».

تنبه جاد الله تمامًا، وتوترت أعصابه:

- «وكيف عرفت؟».

- «العزبة كلها تتحدث عن ذلك..».

- «إنه الحقد الأعمى.. والغيرة يا حسنين.. لكنك لست مثلهم.. تعلم أني قد ادخرت مبلغًا لا بأس به منذ أن كنت في السجن الحربي.. وباعت زوجتي ميراثها... وجمعنا مبلغًا واشترينا بيتًا للزمن.. وأين نذهب عندما نحال على التقاعد؟؟».

- «لكنها ثلاثة آلاف جنيه يا جاد الله..».

- «بالتقسيط يا رجل..».

وصمت برهة، ثم استطرد:

- «ماذا تقصد؟ حذار أن تعتقد أني نشال أو لا سمح الله مزيف.. أنت تعرف الناس..».

همس حسنين بصوت حنون خفيض:

- «كل ما أريد أن أقوله هو أن العيون عليك..».

- «ولِمَ أنا بالذات.. الملايين تجرى أنهارًا.. وناطحات السحاب تعانق النجوم.. والسيارات طولها ستة أمتار تزحم الشوارع.. وهناك آلاف القصور والفيلات أفخم من قصور صاحب

- «أجل . . . المخدرات . . » .

قهقه جاد الله قائلاً :

- «الكلاب الحكومية تشهد . . ألم تكن حاضرًا أنت أيضًا؟» .

- «لقد سترك الله ، فلا تسعَ إلى الفضيحة من جديد . . » .

رفع جاد الله يديه في حركة تمثيلية ، وقال :

- «لقد تبت إلى الله . : ولن أعود للمعاصي أبدًا . . » .

تنهد حسنين قائلاً :

- «يا ليت ! !» .

- «والدليل على ذلك أني سوف أتي معك إلى الشيخ البحيري . . » .

كان حسنين ميالاً لأن يصدق جاد الله برغم الشكوك ، فالتجارب القديمة معه تجعله لا يثق تمامًا في كلامه أو أفعاله ، إنه شديد التغير ، متقلب المزاج ، ينسى عهوده ووعوده ، حتى ليبدو ذلك كأنه طبع أصيل مركب فيه ، لكن قدرة الله فوق الشك والريب ، فمن يدري؟ قد تحل الهداية بقلب جاد الله يومًا ما ، فيمضي على صراط الله المستقيم ، ويواظب على صلاته ، ويبتعد عن الموبقات والمخدرات التي يتعاطاها ، ويصبح إنسانًا سويًا ، وربما يكون أفضل منه عند الله . . لا بد أن يؤمن حسنين بذلك ، والإيمان بقدرة الله على الهداية والتغيير فرض على كل مسلم . .

كان الشيخ البحيرى يجلس كالفلة الندية وسط صحابته الطيبين، والجو يفوح كالعادة برائحة المسك الطاهر، وجلس حسنين وجاد الله حيث انتهى بهما المجلس، كان الشيخ يتحدث عن رجل من الصالحين، عندما أرهف جاد الله السمع، كان الشيخ يقول:

«. . . . . وكان إبراهيم بن أدهم يدعو الله قائلاً: «اللهم أخرجنى من ذل المعصية إلى عز الطاعة . . » وها أنتم ترون أيها الإخوان الخلصاء أن المعصية ذل. . والطاعة عز. . فأنت حين تعصى الله تكون عبدًا ذليلاً لشهواتك. . شهوات الجسد. . والمال. . والسلطة. . وهى كلها إلى زوال، أما الطاعة فهى انتصار على هذا كله. . عندئذ يشعر المؤمن بحلاوتها وجمالها ولذتها. . ولذا يقول أحد الصالحين: «إن بين جنبى من اللذة ما لو علمها الملوك لقاتلونى عليها بالسيوف. . إنها لذة التسامى والخلاص مع مطامع الدنيا ومغرياتها. . لذة الانتصار الأكبر. . ».

وتذكر جاد الله «إنتصار» عندما سمع الشيخ يردد كلمة «الانتصار» مرتين. . لقد انتفض جسده. . إن خيالها يأتيه حتى فى مجلس العابدين والذاكرين وجهها يتلألأ وسط هالة من الذهب والفضة والبلور. . أيستطيع أن ينتصر على «إنتصار» بالمعنى الذى ردده الشيخ؟؟ كان جاد الله سابحًا فى أوهامه، بينما الشيخ يواصل حديثه الشائق، وجاد الله لم يعد يسمع شيئًا. . لكأنما انسدت أذناه

- ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أى بنى.. لقد أقسم المولى جل وعلا أن الرزق مكتوب.. أتفهم.. أقسم باسمه الكريم حين قال فى كتابه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ الذاريات: ٢٢]. وكان هناك إعرابى فى الصحراء يستمع إلى القرآن، وعندما سمع هذه الآية صرخ قائلاً: «مَنْ الذى أغضب الحليم -الله- حتى أقسم..».

- «عندما توقف الشيخ عن هذه العبارة، صاح الجالسون: «الله أكبر.. أكبر..».

نظر جاد الله إلى حسنين فوجد الدموع تنهمر على خديه.. وأخذت جاد الله رجفة هو الآخر.. ووجد نفسه ينادى كمجذوب: «الله أكبر.. الله أكبر».

وعاد الشيخ يقول: «واعلموا أن لكل شىء سببًا.. ازرع تحصد، واعمل تكسب، واذكر الله يذكرك.. وادعه يستجب لك.. قيل لأحد الصالحين: لماذا نحب الدنيا ونكره الآخرة.. ونخاف الموت.. قال: لأنكم عمرتم دنياكم، وخربتم آخرتكم، وأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمار.. إلى الخراب..».

بأصابع شيطانية . . والملعونة إنتصار تفرض خيالها فرضًا . . حتى لكأنما بلحمها ودمها أمامه . . ترقص . . وتغنى . .

والتفت القوم صوب الوافد الغريب جاد الله إذ سمعوه يقول :

- «الدنيا غلاّبة يا شيخنا . . » .

- « هذا صحيح . . » .

- «وهى أقوى منا . . » .

- «عندما تؤمن تصبح أقوى من الدنيا كلها . . » .

- «وهل الأقوياء فى هذا الزمان أقوياء لأنهم مؤمنون؟» .

- «تتحدث عن القوة المادية . . وأنا أتحدث عن قوة الروح والقلب . . » .

- «أيها الشيخ الجليل . . يصعب علىّ الفهم . . » .

سرت غمغمة بين الحاضرين :

- «هل تضايقتم من أسئلتى؟؟» .

قال الشيخ :

- «سل ما شئت يا جاد الله . . » .

- «هل الطاعة تطعم الجياع؟؟» .

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وبسمل، وأخذ يتلو :

وقف جاد الله هذه، وقال بصوت واضح الانفعال:

- «لا بد من تطهيــــر هذه الأرض من الفســـاد.. وذبح كل الشياطين.. ولا حل غير ذلك.. ماذا ترى يا شيخنا؟».

ابتسم الشيخ ثم قال:

- «قال جبريل لحبيبنا رسول الله، حينما آذاه الكفار.. لو شئت يا رسول الله أطبقت عليهم الجبلين.. لكن الحبيب أبى ذلك فى حنان وصفح، وقال: لا.. لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبدون الله.. أو كما قال.. هل فهمت؟؟ الهدم والقتل يسهل عملهما.. أما البناء والإحياء فهو الذى نريد.. فلنحاول أن نخرج الناس من ذل المعصية إلى عز الطاعة.. والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين..».

مضى فى طريقه كطيف خيال.. لم يعد يشعر بتعب أو ألم.. لكن الجو الغريب الذى رفع به الشيخ إليه يسيطر على كلامه وكيانه.. وكلام الشيخ ليس هراء أو حديثًا أجوف.. لقد عجز جاد الله فى النهاية عن أن يفحم الشيخ أو يجعله يتلعثم.. كان كمن يغترف من بحر.. يتدفق الشيخ كشلال.. كلامه يدخل الآذان، ويمضى سريعًا إلى القلب، ويستقر فى العقل.. لقد ضاع جاد الله تمامًا.. إنه لا يدرى أين يتجه...

قابلته زوجه باهتمام وقالت:

- «لقد جاءت وأخذت الأمانة حسب أمرك..».

قال فى دهشة:

- «من؟ وأية أمانة؟».

- «المرأة إياها.. تقول اسمها إنتصار.. أخذت الماكينة لا أعرف ماذا تفعل بها؟؟وقالت أمرت بذلك.. وهى..».

صرخ فى جنون:

- «أيتها الملعونة.. لقد خدعتك.. كيف.. كيف..؟؟ مستحيل..».

وأخذ يضرب رأسه، ويدق الأرض بقدميه ويقول:

- «نحن فى منتصف الطريق.. ما معنى ذلك؟؟».

وهرول خارجًا فى ذعر..

طارت من رأسه كلمات الشيخ الحلوة..

عاد وحشًا كما كان دائمًا..

وأشار إلى تاكسى كى يلحق بإنتصار ليعرف حقيقة ما جرى؛ إذ من المستحيل أن ينام وهو على هذه الحالة، لو أن الأمر قد تحول فهذا معناه كارثة كبرى، فلا بد أن يدفع ما عليه من ديون الأرض والبيت.. وبعدها يمكن أن يتوب.. أو على الأقل يفكر جديًا فى التوبة.

●●●



أخذ يدق الجرس دون فائدة، وبعد أن يئس من الجرس تحول إلى الباب ليدقه بقبضاته القوية المتشنجة بصورة جعلت بعض السكان يطلون مستغربين من الشرفات، ثم أخذ ينظر عبر الشقوق والثغرات لعله يلتقط خيطًا من نور داخل شقة إنتصار، فلم يجد شيئًا، إن عقله يكاد يطير، والعالم أمامه أصبح أضيق من ثقب الإبرة إنه يريد أن يحطم الأبواب، ويكسر زجاج النوافذ، يريد أن يفعل أي شيء ليخفف من الانفعال العاصف بداخله والذي يكاد يفجّره، ترى ماذا يفعل؟؟ أخذ يقطع الشارع جيئة وذهابًا، يهرول ثم يبطيء، ويتوقف ثم يتحرك، ويعتصر إحدى يديه باليد الأخرى، ويزفر في ضيق، ثم يدق بظاهر كفه الأيمن على جبهته، لا يستطيع أن يتوقف عن الحركة. . كيف حدث ذلك؟؟ كيف تجرأت إنتصار على نقل الماكينة من بيته؟؟ ألم تكن تعلم أنه من المحتمل أن يكون موجودًا بالمنزل؟ لاشك أنها عرفت بأسلوب أو بآخر أنه غادر مسكنه وإلا فكيف حضرت بنفسها؟؟ أجل. . إن لها شبكة واسعة

تديرها، ولها مثل الحكومة جهاز تحريات ومخابرات، وقد يكون لديها أكثر من ماكينة، من الواضح أنها تعمل على نطاق واسع، وأنها سريعة الحركة، وأنها تفعل كما يفعل قادة الجيش، عندما يموهون، ويغيرون مواقع الجنود، ويقومون بهجمات خادعة، حتى يوقعوا العدو في الشرك، أو يثيروا الخلل والاضطراب في نفسه.. إنتصار جبارة لا شك، ورأسها يحتوى على مخ كبير.. العمل معها يوحي بالثقة والمتعة، بالإضافة إلى الفائدة السهلة المجزية.. لن أتخلى عنها ما حييت، إن لقائي معها هو فرصة العمر الوحيدة، ولن تتكرر.. يجب أن أكون رصينًا عاقلاً.

وقرر جاد الله أن يعاملها بمنتهى اللطف والرقة هي امرأة.. امرأة أغدقت عليه كما لم يغدق عليه أحد من قبل، حققت له الآمال، وانتشلته من وهدة الذل، وملأت جيوبه بالمال، وأسرفت في إمتاعه حتى كاد يغص بالنشوة العارية، وتعلم منها ما لم يتعلمه في القصر أو الحقل أو الشارع أو الجيش أو السجون، تلك هي العبقرية بحق.. إن الذين يؤلفون الكتب، ويخطبون في المحافل، ويكتبون في الصحف، لا يمكن أن يضاهوها فكرًا وتنظيمًا وإنتاجًا.. لو لم يذهب إلى البحيرى لما حدث ما حدث.. كان لا بد أن يتفرغ جاد الله تمامًا لعمله، وينسى كل شيء إلا إنتصار.. ماذا جنى من حسنين؟؟ بعض المسكنات التي هدأت من روعه، وفتحت أمامه

باب الأمل فى التوبة . . إنه يشعر بالندم لذهابه الآن . . ، منذ ساعة كان سعيدًا بذلك الذهاب . . أى إنسان هو؟؟

ورأى سيارة سوداء تدلف وتتوقف قرب بابها ، لجأ هو إلى شجرة ليرقب ما يجرى ، رأى إنتصار تنزل من السيارة بسرعة ، ثم غابت فى لمح البصر عبر الباب . . وانطلقت السيارة بعد أن استدارت . . وزحف هو نحو الباب بهدوء مشوب بالتوتر . . وما أن دق الباب حتى فتحت له ، وما أن رأته حتى قالت بصوت تخالجه الميوعة المتعمدة :

- «ورائى دائمًا . . كيف أهرب منك؟ أنت قضائى وقدرى . . » .

وأعطته ظهرها ، ومضت للداخل ، وأغلق الباب وتبعها ، وقد اطمأن باله قليلاً :

- «ما دمت تعرفين ذلك ، فلماذا هذه الألاعيب؟» .

التفتت إليه وقد بدا الغضب فى عينيها!

- «لقد خرقت الاتفاق للمرة الثانية . . وذلك معناه أن تقضى علينا جميعًا . . عرف الجميع أنك اشتريت البيت . . وأشاعوا أنك من تجار المخدرات . . كان ذلك هو التفسير الوحيد . . وهو مطمئن بالنسبة لى ، لكن ماذا يحدث لو داهموا بيتك بحثًا عن المخدرات ووجدوا الماكينة والأدوات . . فكرْ جيدًا . . إن ما أقدمت عليه

كان لمصلحتك أولاً، ولمصلحتنا ثانيًا . . علمتنى الأيام أن أسبق الحوادث . . هل فهمت يا جاد الله».

كان مقتنعًا تمام الاقتناع بما قالت، لكنه كان ساخطًا على محفوظ، إن كراهيته له تزداد يومًا بعد يوم، وقضبان السجن وأسواره لم تمنع محفوظ من الاتصال الدائم بها والتنسيق معها.

قال جاد الله فى حمق:

- «إن محفوظ يتحدانى . . لقد بدأ يشك ويغار . . ».

قهقهت فى ميوعة وقالت:

- «وماذا يفعل الطائر الحبيس فى القفص سوى أن يندب حظه، ويشقى بالحسرة؟؟».

- «هو الذى وشى بى . . ».

- «إن كان قد فعل، فقد أنقذنا وأنقذك . . محفوظ رجل . . ».

التفت إليها فى غيظ وقال:

- «أهو التحدى؟؟».

- «لقد ضحى بنفسه من أجلنا . . أنقذنا من الإدانة، وذهب هو ليقضى سبع سنوات فى الوحدة والعذاب . . أتفهم معنى السجن يا سجان؟؟».

قال وهو يحاول الهروب من مواجهتها :

- «أفهم من ذلك أنك ما زلت تحبينه . . » .

- «إن القلب ليس ضيقًا كما تتوهم . . ومحفوظ جدير بالاحترام . . » .

ثم أخذت تشرح له سياستها الجديدة ، أفهمته أنها اتخذت قرارين للتنفيذ فورًا ، أولهما : نقل الماكينة إلى مكان أمين ، وثانيهما : التوقف عن الإنتاج والتوزيع لمدة أسبوعين ، حتى ينجلى الموقف تمامًا ، وتتم التحريات المطلوبة ، وأكدت له أنه ليس هو الرجل الحكومى «الوحيد» معهم ، إذ إن لهم مخبرين فى قلب الأجهزة الرسمية ، وفى قسم مكافحة التزييف بالذات .

ابتسم فى استسلام وقال :

- «لو فعل السياسيون مثلما تفعلين لقلبوا نظام الحكم فى ليلة . . » .

- «لا دخل لنا بالسياسة يا جاد الله . . نحن متواضعون لأبعد حدود التواضع . . هل اقتنعت؟؟» .

أبدى تخوفه من شىء أساسى بالنسبة له ، ألا وهو الثقة به ، واعترف بخطئه الجسيم ، وتعجله فى تحقيق مآربه ، لكنه توسل إليها أن تساعده فى إتمام صفقاته حتى لا تضار مشاريعه ، وينكشف أمره إذا لم يؤدِّ التزاماته ، فطمأنته على ذلك تمامًا ، وشرحت له كيف أن

أخطاءه كانت متوقعة؛ لأنه يتعلم المهنة لأول مرة، ومن ثم فإن الخطأ كان محتملاً، وكان ذلك هو السبب فى متابعته، وتكثيف المراقبة حوله، وحتى عندما سافر إلى القرية كان هناك من يراقبه، وقالت ببساطة:

- «أنت فى حاجة ماسة إلينا.. ونحن فى حاجة أيضًا إليك.. فلا غنى لأحدنا عن الآخر.. ونحن نحرص بشدة على العناصر الحكومية مثلك.. ولو لم أثق بك، لما كشفت لك عن هذه المعلومات كلها..»

وابتسمت فى خبث وقد اقتربت منه حتى كادت تلاصقه:

- «ثم إن قلبى اختارك يا جاد الله.. يا وحش..».

جرت الدماء فوّارة فى عروقه، الكلمة الوحيدة التى تثير حميته، وتشعل كيانة «الوحش».. اللحن الغجرى الصاخب الذى يجعل كل عضلة فى جسده تهتز.. ترقص.. الوحش.. الكلمة التى تحلق به فوق قمة النشوة العالية.

- «كلماتك يا إنتصار تمدنى بطاقة لا حدود لها..».

- «أنا أعرف مكامن الخطر..».

- «ولهذا أحبك.. وأخاف منك..».

- «أنت تبالغ..».

- «على الرغم من ابتسامتك فأنت قاسية فى قربك . . وبعدك . . » .

قالت وهى تجلس وترمى بحذائها بعيدًا ، وتكشف عن ساقيها الجملتين :

- «ماذا تقصد بالقسوة يا جاد الله؟؟» .

- «أقصد . . أقصد . . لم أعد أستطيع التفكير . . » .

- «إذن لا بد أن تطفئ الظمأ . . » .

- «هيا بسرعة . . » .

قالت إنتصار وهى ترفع يدها :

- «بشرط . . » .

- «موافق مقدمًا . . » .

- «ألا تذهب مرة أخرى للشيخ البحيرى . . » .

هتف فى ذهول :

- «هل عرفت؟» .

- «أنت لست فى وعيك على الرغم من أنك لم تشرب بعد . . ألم أقل لك منذ فترة وجيزة أننا نراقبك . . » .

- «هو رجل حسن النية ، لكنى لن أزوره . . » .

قالت وهى تتمطى وتبرز مفاتن صدرها :

- «نحن والبحيرى على طرفى نقيض . . بصراحة هو رجل آخرة، ونحن أبناء دنيا . . هو سماء ونحن أرض . . تعرف ذلك . . وعلينا أن نختار . . وقد اخترنا . . ولا مجال للتراجع . . لنعش حياتنا، وليعش حياته . . أنا أحب هؤلاء الناس، لكن من الصعب على أناس مثلنا أن ينتظروا العمر كله حتى تفتح الجنة أبوابها . . » .

قال جاد الله وهو يبتسم فى انبهار :

- «تتكلمين كالشيوعيين . . » .

- أنا لا شيوعية ولا يحزنون . . ولا أعرف ما هى الشيوعية . . أنا امرأة خرجت من كل شىء . . واخترت طريقًا . . سافرت لبنان عندما اشتغلت «تاجر شنطة» وهناك لأول مرة وجدت زمنًا غير زماننا . . يفعلون كل شىء هناك دون حرج . . لا تجعلنى أتحدث عن هذا الأمر . . أترى لماذا أحببتك؟؟» .

قال جاد الله فى لهفة وتشوق :

- «لماذا؟؟» .

- «لأنك قذر . . » .

دق قلبه فى حيرة : وقال فى استنكار :

- «قذر؟؟ هذا أمر صعب . . » .

- «وتصر على قذراتك . .» .

- «وهل هذه ميزة يا إنتصار . .» .

- «بكل تأكيد . .» .

- «كيف؟؟» .

- «لأنك صريح . . لا تكذب على نفسك . . وممن كنت تظن أن تتعلم الأخلاق؟ من الإسطبل؟ قصر الباشا؟ الوسط الفنى؟ السجن؟ الجوع؟ السياف؟ الرعب والكذب والنفاق الذى يعم كل شىء . .» .

صبت كأسًا له، ثم صبت لنفسها وشربته دفعة واحدة، ففعل مثلها، وأخذ يلتقط شيئًا من المزة، وسمعها تقول :

- «بقى شرط آخر . .» .

- «ألم تنتهِ الشروط بعد؟؟» .

- «محفوظ . .» .

دق قلبه غيظًا . . دائمًا محفوظ لشد ما يكره هذا الإنسان، ولماذا لم يتخلص منه بأية وسيلة، حتى لا يصبح مادة للحديث بعد ذلك، قال :

- «ماذا عن محفوظ يا ست الكل . .» .

- «ألا تصيبه بأذى . . أنا أعرفك . . » .

قال وهو يعود إلى الكأس :

- «إن قذارتى لن تصل بى إلى حد الفتك به وهو سجين . . من أجلك أنت يا نور عينى . . » .

وعادت تقول :

- «إن عملنا هذا لن يستمر إلى الأبد . . من الحماقة أن نبقى نزيف الأوراق المالية حتى نقع فى الفخ . . ولو أصررنا لسقطنا دون محالة . . العقلاء يغيرون من أساليب نشاطهم . . سوف نتحول إلى التجارة . . أو التهريب . . لا بد أن نتحول . . من يدرى قد أعود إلى الفن مرة أخرى ، ونكون فرقة ويكون لنا إنتاج فنى كبير يخدم المجتمع . . ها . . ها . . ها . . الجميع يخدمون الوطن يا جاد الله . . وكل شيخ وله طريقة . . » .

وأخذا يتقارعان الكئوس . ولم تكن راغبة فى أن يتمادى فى الشراب حتى يسكر ، ولهذا وقفت له بالمرصاد ، إنها تعرف كيف تتحكم فى مشاعرها ، وتكبح نهمها .

- «من أين أتيت بهذا العقل كله يا إنتصار؟؟» .

- «من علب الليل . . » .

- «وهل لليل علب؟» .

- «أيها الساذج . . هناك المجتمع العادى بكل مساوئه، ليست هناك عقبة احترام أو أخلاق أو كرامة . . الكل يلهو ويشرب ويرقص ويفعل ما يحلو له . . غابة جميلة من الوحوش الآدمية . . وفى الصباح تراهم يجلسون على المكاتب الأنيقة . . والأرائك الموشاة، ويتحدثون باحترام وتأنق وتحضر . . ».

قال فى شوق عارم :

- «أريد أن أرى بنفسى كل شىء . . ».

- «لا تتعجل يا جاد الله . . أنت تحتاج إلى تدريب طويل . . ».

حدق فيها النظر . . وأطال التحديق، وهتف فى حيرة بالغة :

- «مَنْ أنتِ؟».

قالت ببساطة غريبة :

- «أنا إنتصار . . ».

- «لا تهربى . . ».

- «لست جاسوسة إسرائيلية . . ».

- «حسن . . فمن أى بلد أنت؟؟».

- «كفر البلاص . . ».

- «تهربين مرة ثانية . . ».

قالت وهى تجرع بهدوء:

- «أتريد الحقيقة؟؟».

- «بالتاكيد..».

- «لا أعرف.. لكن معى جواز سفر.. وكنت ساقطة القيد.. وماذا يهم؟؟ هنا أوهناك.. الأرض لا تتحيز لأحد.. وتفتح ذراعيها فى ترحاب، ثم تحتضننا عندما نموت..».

وترقرت الدموع فى عينيها..

قال:

- «دعينا من هذا.. لنمرح ونسعد.. فالعمر قصير..».

وضغطت على زر فى الراديو، وانبعث صوت المطربة يتأود:

أنا شفت جمال

أنا شفت جمال.. والنبى يامّه..

وربطت إنتصار شالاً حول أسفل بطنها، وأخذت ترقص على اللحن الطروب..

●●●



ضرب الأمباشى حسنين كفًا بكف، كاد الذهول والدهشة تذهبان بتعقله ورزانته، كيف يمكن تصور ما حدث؟؟ كانوا يتحلقون حول الشيخ البحيرى فى جلستهم المعتادة بعد صلاة العشاء، وكان الشيخ يشرح لهم بيتًا شهيراً من الشعر للإمام البوصيرى رحمه الله :

والنفس كالطفل إن تتركه شبّ على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وأخذ الشيخ يفيض فى رياضة النفس، وكيف يدربها صاحبها على التقشف، ويربيها على الحرمان. ويزجرها عند التفكير فى المطامع، ويكبحها عند النظر إلى الشهوات، ومن ثم تعتاد النفس على الاستقامة، وتتبنى سلوك الطهر والتقوى، فيصبح ذلك طبعًا أصيلاً فيها، وما الصوم إلا رياضة نفسية لتدريب الإنسان على التصدى لشهوة المعدة والفرج، والغيبة والنميمة وما إلى ذلك من

الصفات الذميمة، وجميع الضوابط الأخلاقية فى الإسلام، تعنى رياضة النفس بأسلوب أو بآخر، قال رجل فى آخر الصف، غريب الصوت والسحنة:

- «والفقراء الذين يعيشون فى حرمان دائم من كل شىء أتراهم فى حاجة إلى تلك الرياضة يا مولانا؟؟».

رمقه الشيخ بنظرات ذات معنى وقال:

- «عليهم أن يروضوا أنفسهم على الصبر، ويغالبوا أحقاد النفس وتمردها، والأحكام الشرعية جاءت للجميع دون استثناء..».

وعاد الرجل يقول:

- «إنهم مظلومون يا شيخنا..».

- «فليبحثوا لهم عن مخرج..».

- «كيف؟؟».

قال الشيخ بعد أن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمل:

- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

قال الرجل الجديد:

- «أنت تدعوهم إلى الصبر. والصبر هنا خنوع..».

ابتسم الشيخ فى رقة وقال:

- «الصبر طاعة وهداية ونور. . وقوة إرادة. . أما الخنوع فهو شيء آخر إنه ليس من صفات المؤمنين الصادقين. . ».

ثم أخذ الشيخ يترنم بصوت عذب حنون، جياش العاطفة:

املأ الكأس بالرضى

وارو قلبًا متيما

هكذا الله قد قضى

إن في الزهد مغنما

●●●

واجعل الحب مركبا

وبراقًا إلى الجنانْ

وخذ الصبر صاحبا

تجد الأنس والحنانْ

وما إن انتهى الشيخ من إنشاده حتى هتف الحاضرون بالتكبير والتهليل، ومضى الشيخ يحدثهم عن نزعات الشياطين، وكيف تستولى على بعض المشاعر والأفكار، وتبعث البلبلة فى نفوس الضعفاء، فتقلب الحقائق وتعكس البديهيات. وتوقع المساكين فى حيرة، فيتصرفون دون وعى، عندئذٍ تذْلهمُّ الفتن، ويختلط الحابل

بالنابل، فيعلو الأسافل، ويُداس الأشراف، وتظلم الدنيا، وفى الظلام تحتضر قيم الحب والخير والفضيلة، وقبل أن ينتهى الشيخ من كلامه، وقف ذلك الرجل الجديد شاهراً مسدسه، وصاح فى خشونة:

- «لا يتحرك أحد منكم من مكانه..».

ثم خرج من جيبه صفارة، أخذ ينفخ فيها بطريقة معينة مزعجة، وقال «حسنين أبو زهرة» وقد استولت عليه الدهشة:

- «ماذا جرى؟؟».

تمتم الشيخ فى حزن وألم:

- «الهرج والمرج من علامات الساعة..».

وداهمت المكان كوكبة من الرجال الغرباء، يعرفهم الناس عادة بملابسهم وسماتهم المميزة، وأحاطوا بالجالسين من كل جانب، وقد سددوا مسدساتهم إلى الجالسين، وتمتم حسنين مرة أخرى:

- «ما هذا الذى يحدث؟؟».

رد عليه رجل من المداهمين:

- «ضع لسانك فى فمك واصمت..».

- «أليس لنا الحق فى الاستفسار؟؟».

- «لا . . » .

- «هل معكم إذن من النيابة؟؟» .

- «أية نيابة يا روح أمك؟؟» .

قال حسنين فى غضب :

- «احتشم يا رجل . . أنا رجل حكومى مثلك . . » .

رد المخبر ساخراً :

- «هذا ألعن . . هيا معنا جميعًا . . » .

ثم التفت إلى الرجل الذى كان يناقش الشيخ منذ دقائق قليلة :

- «شكرًا يا حضرة الضابط . . » .

وحشروا الشيخ البحيرى ورجاله فى سيارتين نصف نقل، وأغلقوا عليهم الباب الخلفى، ونظر الشيخ إلى وجوه رجاله الشاحبة . . والحيرة المرتسمة على وجوههم، وبعضهم بدا الرعب جليًا فى نظراتهم القلقة، هتف الشيخ فى ثقة :

- «وحِّدوه . . » .

فردوا تلقائيًا :

- «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» .

وسادت فترة صمت قال الشيخ بعدها :

- «هذه أوقات اختبار . . التزموا بما سمعتموه اليوم فى الدرس وفى الدروس السابقة . . وتيقنوا أننا لم نكن نقول كلامًا لمجرد التحصيل العلمى والنفقة ، ولكن للتطبيق وقد حانت ساعة الاختبار . . إما النجاح . . وإما الرسوب وثقوا أن الله معكم . . أيها الإخوان قد يُحال بينى وبينكم ، وبينكم وبين بعضكم البعض . . فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن معكم من هو أقوى منى ومنكم ومن الجميع . . معكم الله . . فاعتصموا بحبله . . واذكروه . . اذكروه فى كل لحظة . . واجعلوا من سجنكم خلوة . . واعلموا أن كل شىء بأمره . . وأنه لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك ، فلن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله لك . . » .

هتف أحد الدراويش فى استغراب :

- «السجن ؟ » .

- «ألم أقل لكم : إن الدنيا سجن المؤمن ؟ ؟ » .

- «لكننا لم نرتكب جرمًا يا شيخنا . . » .

قال الشيخ محذرًا :

- «احذر الغرور . . كم من المآثم نرتكبها دون أن ندرى ! ! لكن الله غفور رحيم . . » .

أطل عليهم من كوة فى الحاجز الذى يفصل بينهم وبين مقدمة السيارة التى بها السائق ، وجه مكشر عن أنيابه ، ذو شارب كث ، وملامح حديدية سمراء وقال فى حزم :

- «الكلام ممنوع . . » .

وسيق الذين آمنوا إلى غرفة شاسعة ، بها بعض المكاتب والخزائن الخشبية والمعدنية ، وصورة ضخمة للسيد الرئيس ، يجلس تحتها شاب أنيق جميل السمات ، فاحم الشعر ، يضع فى إحدى زوايتى فمه سيجارة فاخرة ، كان ينظر فى أوراق أمامه ، ودق المخبر الأرض بقدمه ، ثم أدى التحية وهو يهتف : «تمام يا أفندم» .

قال الشيخ البحيرى ، وهو يلوح بيده وفيها المسبحة البيضاء :

- «السلام عليكم . . » .

سدد إليه الضابط نظرات ثاقبة ، ثم عاد ينظر إلى أوراقه دون أن يرد ، وظلوا واقفين ، وهو يعبث بالقلم على الورق ، ثم قال دون أن يرفع رأسه :

- «خذهم . . وضع كل مجموعة فى غرفة . . أما الشيخ ف . . » .

أكمل المخبر قائلاً :

- «حبس انفرادى يا أفندم . . » .

ونادى المخبر عليهم كى يتبعوه ، لكن الشيخ البحيرى توقف قائلاً :

- «أيمكن أن . . » .

قاطعه الضابط فى غلظة :

- «اذهب مع المخبر ، واسمع الكلام . . » .

- «لكن . . ».

صاح فيه بغضب:

- «لا لكن ولا حاجة . . أتظن نفسك فى حلقة ذكر أو فى المنطقة التعليمية . . أنت فى وزارة الداخلية يا بك . . وعندنا هنا لا كبير ولا صغير . . الكل واحد . . وطبعًا أنت تؤمن بالمساواة . . توكل على الله . . ».

استدار الشيخ وهو يتمتم: «ونعم بالله . . ».

وران الصمت على الغرف الصغيرة المغلقة، ولمَ يكن يقطع الصمت إلا كلمات التهديد والوعيد التى يطلقها العساكر فى الخارج، وجلس الشيخ فى غرفته وحيدًا، ممسكًا بمسبحته، واستغرق فى قراءة أوراده اليومية، كان قلقًا بعض الشىء لأنه لم يفهم بعد معنى لذلك الأمر المفاجئ الذى ليس له ما يبرره، وكان قلقه منصبًا على الرجال الطيبين الذين أخذوا إلى المحبس دون ذنب جنوه، لكنه استعاذ بالله من الشيطان وأخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه، وأخذ يقرأ فيه، والدموع تتساقط من عينيه وتبلل لحيته، وتناهى إليه صوت أحد الإخوان وهو يدق الباب ويقول:

- «نريد أن نتوضأ».

- فرد عليه الحارس الذى يتجول فى المشى الخارجى ببطء:

- «لن يفتح الباب إلا فى الصباح . . ».

وما إن سمع الشيخ ذلك حتى اقترب من باب محبسه، ونادى بأعلى: «تيمموا. . وإذا لم يتيسر الماء»، ثم يسمع الحارس يقهقه ويقول:

- «اظهر يا زعيم. .».

ثم قال في سخرية: - «الزعيم يقول لكم تيمموا. . أو يمكنكم تأجيل الصلاة حتى الغد أو بعد غد. .».

أما حسنين فقد كان في حالة من الضيق لا مثيل لها، إنه رأى بنفسه الكثير من التجاوزات والأخطاء والمظالم التي ترتكبها السلطة، وكثيراً ما كان يرى سبباً -ولو بسيطاً- لذلك، لكنه هذه المرة لا يستطيع استنكاره أو فهم ما يجري من أحداث، وإما أنهم أطفال، أو أغبياء، أو عابثون يريدون أن يتسلوا بعبيد الله، إنه شاهد على كل شيء، فالشيخ البحيري لم يتطرق مرة واحدة للسياسة بهجوم أو نقد، إن الرجل عرف طريقه، فهو يعلم الناس المبادئ، ويحثهم على الطاعة والتقوى، واثقاً بأن الإيمان الصحيح الحقيقي يحل كل المشاكل، ولا ينبت إلا الخير والمحبة والتسامح. . .

وتذكر حسنين التهديد الذي أطلقه «جاد الله» ذات يوم حينما أنذر حسنين بأنه قد يبلغ المباحث عن نشاط الشيخ البحيري، بحجة أن دروسه والناس الذين حوله يشكلان خطراً ضد أمن الدولة، أيمكن أن يفعلها «جاد الله»؟؟ أتصل به النذالة إلى هذا الحد من

الجهل والحماقة والغدر؟؟ لو أن هناك من يستحق أن يسجن لكان جاد الله وأشباهه، وانفعل من الغيظ، وأخذ يدق جدران الغرفة بقبضته المتصلبة، لكنه سمع طنينًا كطنين النحل، ها هم إخوانه يذكرون الله، وتذكر شيخه وهو يوصيهم بأن يجعلوا من سجنهم خلوة، لكن أيمكن أن يطول هذا الاحتجاز؟؟ وقبيل الفجر بدقائق استدعى الشيخ البحيرى للمكاتب . . تنفس الشيخ النسيم البارد، فشعر بقدر غير قليل من الانتعاش، إنه لم ينم لحظة، وكانت الأفكار الكثيرة تحاصره، لكنه كان يجاهد فى التغلب عليها بقراءة القرآن والاستغفار والذكر، وهكذا ظل متيقظًا عابدًا، يدعو الله ويتوسل إليه، ويعلن مؤكدًا من آن لآخر رضاه بقضائه وقدره.

وفوجئ الشيخ عندما دخل المكتب، بصوت كصوته تمامًا يتردد فى جنبات الغرفة المضيئة، ونفس الضابط الذى استقبله، يبتسم وينظر إليه نظرات ذات معنى، ودفع المخبر الشيخ فى غلظة وخشونة وهو يقول: «تحرك . . مالك كالصنم!!»، واستغفر الشيخ، ثم سمع الضابط يقول:

- «هل هذا صوتك؟؟».

- «لكأنه هو . .».

- «وهل هذه خطبتك؟؟».

واستمع الشيخ برهة . ثم قال:

- «نعم..».

وأغلق الضابط المسجل وهو يقول:

- «كنا نحصى عليك حركاتك وسكناتك، ونسجل كل ما تلقيه من أحاديث، حتى ما تقوله في المنطقة كنا نسجله.. ونعرف الصحف التي تقرؤها، والكتب التي تقتنيها.. ونعرف مريديك وأتباعك بالاسم والعنوان والمهنة.. إنهم تشكيلة غريبة، لا نعرف كيف اجتمعت عليك؟؟».

قال الشيخ فى ثقة:

- «بل اجتمعوا على كلمة الحق..».

- «هو تنظيم إذن..».

- «أو تكره التنظيم يا بنى..».

وقف الضابط محتداً:

- «إنه اعتراف صريح..».

- «بماذا يا ولدى..».

- «بأنك قمت بتكوين تنظيم من أفراد مشبوهين، لمناهضة نظام الحكم فى الدولة، مخالفًا بذلك القوانين واللوائح، ومتسترًا تحت ستار الدين.. والدين منكم براء..».

تحجرت الدموع فى عينى الشيخ، ونظر فى دهشة، ثم قال بعد أن استعاذ وبسمل:

- ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

قال الضابط فى توتر:

- «قل كلامًا مفهومًا..».

- «إنه كلام الله..».

اقترب الضابط من الشيخ ورفع يده ليصفعه، لكن الشيخ صرخ صرخة اهتز لها كيان الضابط؛ إذ قال:

- «اخشع يا بنى. فما تقوله هراء.. ولسنا تحت الحكم العرفى، فلتستدع النيابة، ولتأمر باستجوابى رسميًا.. البلد فيها قانون وأنت تعرف..».

عاد الضابط إلى كرسيه، وفتح الأوراق وقال:

- «تكلمت فى خطبك عن الأسافل.. فمن هم؟؟».

- «الأسافل هم الأسافل.. وأنت تعرف».

- «وماذا تقصد بالفتن؟؟».

- «الإيقاع بين الناس بالفساد والكذب..».

- «تتحدث عن الظلم كثيراً . . » .

- «ظلم النفس . . ظلم العباد . . وظلم ال . . » .

قاطعة الضابط قائلاً :

- «قف عند ظلم العباد . . » .

وقفت . . .

- «طبعًا تقصد أن الحكومة تظلم؟؟» .

قال الشيخ باسمًا :

- «كيف تثبت ذلك؟؟» .

- «كلامك كله رمز . . وأنت الذى يستطيع حل الرموز . . » .

- «لا غموض فيما أقول . . فأعد سماع التسجيلات . . » .

- «الأسلوب الوحيد لانتزاع الاعتراف منكم هو الضرب . . » .

قال الشيخ دون تردد :

- «عندئذٍ يكون الظلم . . » .

هب الضابط واقفًا مرة أخرى وقال :

- «نحن نضرب أكبر رأس فى البلد . . هل معنى ذلك أننا نظلم؟» .

- «قوانين الأرض والسماء وضعت قواعد لذلك . . » .

قال في ضيق نافذ .

- «أعرف أنه لا فائدة منك . . أما مريدوك فسيتكلمون» .

وقال الشيخ :

- «وجبت صلاة الفجر . . » .

- «فلتؤجلها . . » .

- «الصلاة لوقتها يا بنى . . وأنت ألا تصلى؟؟» .

- «أنا أؤدى عملاً . . العمل عبادة . . » .

- «لكنه لا يلغى الصلاة . . » .

لم يرد الضابط ، وإنما أشار إلى المخبر قائلاً :

- «خذوه ليتوضأ ويُصلى . . وأعيدوه إلى غرفته . . » .

وتعرض الرجال المحبوسون لضغوط شديدة ، كما لاقوا الكثير من السب والصفع والضرب بالخيزرانة ، وظلوا طوال اليوم التالى يعانون من التهديد والوعد والوعيد ، ولم تسفر التحقيقات عن شىء له قيمة ، وفى اليوم الثالث جاء ضابط كبير إلى الشيخ فى زنزانته ، وقال :

- «معذرة يا شيخ . . كانت مجرد وشاية . . وتأكدنا تمامًا من سلامة سلوكك أنت ورجالك . . وسيفرج عنكم الآن ، وأنت تعلم أننا لم

نفعل ما فعلنا إلا لدواعٍ أمنية بحتة، فالأعداء فى الداخل والخارج.. وطبعًا قرأت عما فعله الإخوان المسلمون والشيوعيون والبعثيون والعمال وطلبة الجامعة، واليهود يقفون لنا بالمرصاد.. والاستعمار يتربص بنا الدوائر.. والثورة المضادة تنتظر الفرصة السانحة.. ولو لم نكن على يقظة تامة لضاعت البلد..».

لم يجب الشيخ بشىء، ظل مطرقًا مفكرًا، لكنه سمع الضابط الكبير يقول ببساطة:

- «لا بد أن توقعوا على إقرار بعدم العودة لعقد مثل تلك الاجتماعات مرة أخرى..».

رفع الشيخ رأسه فى دهشة وقال:

- «ما دامت قد اتضحت براءتنا، فلماذا هذا الإجراء؟».

- «مجرد احتياط..».

- «لكننا نصلى ونعبد الله..».

- «أعرف..».

- «ونجتمع على خير.. والناس يجتمعون فى كل مكان.. فى المقاهى والمساجد والأسواق والحانات ودور اللهو..».

قهقه الضابط الكبير وقال:

- «هؤلاء لا خطر منهم . . » .

- «فساد الأخلاق هو الخطر لو تعلم . . » .

- «الأخلاق هى السمع والطاعة لولى الأمر . . من أجل المصلحة العامة . . إن ما نفعله إجراءات وقائية لا تضر . . » .

تمتم الشيخ متسائلاً :

- «لا تضر؟؟» .

- «بالتأكيد . . فسيلزم كل واحد منكم بيته ، كى يحسن رعاية أسرته ، وتربية أولاده . . أليس هذا صحيحًا؟؟» .

لم يكن الشيخ يصدق ما يسمع ، أيصل الأمر لهذا الحد من الكبت الإكراه والتضيق؟ إن العالم كله سينفجر يومًا ما ، وأن الغضب المختزن قد يتحول إلى تدمير رهيب ، أن الفساد يجد متنفسًا له فى كل مكان ، أما الدعوة إلى الخير والفضيلة ، والتجمع على الإيمان والتقوى فهى كلها ممنوعة بحكم رجال الأمن ، أيمكن أن يكون هذا أمنًا؟؟

وقال الضابط :

- «عندى فكرة . . » .

- «تفضل . . » .

- «لا مانع لدينا من أن تجتمع مع رجالك بشرط . . ».

- «ما هو؟؟».

- «أن تأخذ منا تصريحًا مسبقًا كل مرة، وأن تسمح بتواجد أحد رجالنا . . في اجتماعتكم، وتتركوه يسجل ملاحظاته دون تدخل . . أتوافق؟؟».

قال الشيخ فيما يشبه الارتياح . . «أوافق»

وخرج الرجال إلى بيوتهم، وأخذ الشيخ بعد أسبوع التصريح الأول، وعند وقت اللقاء لم يحضر أحد . .





فتح الشيخ البحيرى مصحفه، أخذ يقرأ الآيات بصوت يندبه البكاء، كان يشعر أن الصوت يصعد من قلبه، وأن الكلمات تشع نورًا، وأن المعانى تتجسد فى عقله، وكأنه يرى الجنة والنار، وفرعون وهامان وقارون، ويرى مصارع الطغاة والظالمين. . إنه أمام شريط طويل من المشاهد والأحداث وحركة التاريخ والحياة، هو إذن ليس وحده فالله يأخذ بيده إلى الحقائق النورانية، ويملأ قلبه إيمانًا ويقينًا. . ، وماذا يهمه من شأن الدنيا إذا كان الله معه؟؟ لم يكن متضايقًا لما جرى، إنه ابتلاء الله الذى يصيب به عباده المؤمنين، فمرحبًا بابتلاء الله. . إذ لا شك أن له فى ذلك حكمة قد تخفى عن العيون والبصائر، فالمهم هنا الرضى، وتذكر كلمات لأحد الإخوان المناشدين أثناء الحضرة. . كان ذلك الأخ يترنم بشعر شعبى مؤثر يقول:

يا عبد تُبْ وارضَ

أيام وتتقضَّى

انظر إلى الروضة . . تلق حبيب الله . . نعم :

فهناك بالقرب من الروضة الشريفة، التى سيزورها الشيخ هذا العام، يرقد خير خلق الله، محمد رسول الله، يرقد بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وجاهد فى الله حق جهاده، ما أعظم ذلك!!

واستدعى الشيخ أهل بيته، وأخذ يحدثهم عن الله، وعن القصص الحق، فعبر العصور، وخبث الشياطين، وغرور الدنيا وزخرفها، وأخذ يوصيهم بالاجتهاد فى العبادة والعمل وحسن الخلق، وقالت زوجه فى استغراب :

- «أيمكن أن يساق قائل مثل هذه الكلمات إلى الحبس . . » .

- «بنو إسرائيل كانوا يقتلون النبيين . . وقالوا : يد الله مغلولة غلت أيديهم . . سبحان الله . . » .

قالت فى أسى :

- «قلبى غير مطمئن، لماذا لا نهجر هذه الديار؟؟» .

ترنم بآية من القرآن الكريم :

- ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] صدق الله العظيم .

قالت :

- «أرض الله واسعة . . » .

- «أجل.. لكنها لم تعد كالأمس البعيد.. نحتاج إلى تأشيرات دخول، وتصاريح إقامة.. وطائرات.. ومصروفات بالعملة الصعبة.. ونحتاج أيضًا إلى تأشيرة خروج.. ثم إنى باقٍ هنا بأمر الله..».

قالت:

- «تفرق الأحباب..».

- «إنهم هنا...».

- «كيف؟؟».

- «أشعر أن أرواحهم ترفرف حولى.. وتسمعنى.. يا امرأة..».

- «لكأننا فى سجن كبير..».

ألم أقل ألف مرة.. الدنيا سجن المؤمن..

- «لكن..».

- «لكن ماذا يا امرأة؟؟ ادعى الله يملأ قلوبنا باليقين.. اليقين خير النعم كما يقول المصطفى..».

همست الزوجة:

- «ألا تشعر بغربة؟».

أشرق وجهه بفرحة ملائكية وهتف:

- «طوبى للغرباء!!».

ثم شرد الشيخ لحظات، وهام بنظراته الرائقة الممتلئة يقينًا وقال:

- «رأيته أسود السحنة.. يوجه إلى صدرى خنجرًا مسمومًا.. كانت عيناه تتقدان شررًا.. وأسنانه تلمع فى جوف الظلام.. وجدت يدًا تمتد من الغيب تمسك بيده فى آخر لحظة عندما هتفت: «مولاى.. علمك بحالى يغنى عن سؤالى..». وحدث ضجيج هائل.. ورأيت الخنجر المسموم ملقى على الأرض.. ورأيت العدوان يحترق.. يتكوم كتلة من رماد أسود.. وصحوت من النوم فإذا المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر.. وقلت اللهم اجعله خيرًا..».

ردت زوجه وقلبها يخفق:

- «لا تحتاج الرؤيا إلى تفسير..».

- «كان ذلك قبل أن يحدث ما حدث بليلتين..».

- «كانت إنذارًا.. وبشارة..».

- «صدقت يا زوجتى.. فى الدرس الأخير كنت أشعر أن هناك من يحصى علينا تحركاتنا وكلماتنا.. بل همساتنا.. ولما بدأت الأسئلة الغريبة، راودنى الشك.. قلت لنفسى: لتكن إرادة الله.. لقد كتب على نفسه الرحمة».

ودمعت عينه، ثم قال:

- «انفض الأحباب، وأقفر المكان، أين الزهور والروائح الزكية، والابتهالات الجماعية، وأغانى الضراعة والدعاء ومديح النبى المختار؟؟ كان الحاضرون يمدوننى بالمعانى، فتنثال على الأفكار كالغيث.. وكانت عيونهم المحبة الصادقة تتدفق بالأمل والمحبة.. لا أستطيع أن أعيش وحدى يا امرأة.. لشد ما أعجب لعباد الصوامع فى البرارى والقفار!! إن حياة الوحدة تشبه الحياة فى «ثلاجات العصر».. تجمد وسكون.. شىء أشبه بالموت.. أتفهميننى؟؟».

وعرف الشيخ بعد ذلك أن الإخوان لم يحضروا نظرًا لأنه تم استدعاؤهم للمباحث العامة، قبل موعد الاجتماع بساعة، وألقيت عليهم بعض التنبيهات أو النصائح للعمل بها حفاظًا على مستقبلهم، ووجد الشيخ أن الأمور أصبحت معقدة لحد كبير، ففكر فى الأمر، وأخيرًا اهتدى إلى حل وسط، لقد حمل عصاه، وارتدى عباءته، وتوجه شطر مسجد «السيدة زينب»، وهناك وجد الكثير من معانى الاطمئنان والراحة، على الرغم من الضجة التى تثار هناك، كان يجلس فى مكان قريب من المنبر، ويصلى ويقرأ القرآن، الأوراد، لكن الذى آلمه أن بعض رواد المسجد كانوا يختطفون يده لتقبيلها، وهو يقاوم بشدة، كما كان بعضهم يأتى ويسقط فى حجره بعض المال، فيجرى وراءهم ويرد إليهم

أموالهم، وينصحهم بتقديمها لبعض الفقراء الذين يعرفونهم، وكان الناس يقصدونه لطلب الدعاء منه، والتماس البركة، لكنه كان يبتسم لمن يأتى ويوجه إليه سؤالاً حول الفقه أو السلوك أو التوبة أو الزكاة وما إلى ذلك، وكان يجلس ويجيب عليهم بصوت مسموع، إذا لم يكن فى السؤال أو الإجابة حرج أو خصوصية، وهكذا اتسعت دائرة مجلسه يومًا بعد يوم، وعرف الإخوان القدامى بما حدث فى الماضى.. وسارت الأمور سيرًا حسنًا، أثلج قلب الشيخ وقلوب عشاقه، لكن أمرًا غريبًا قد حدث.. جاءه شيخ المسجد الزينبى ذات مساء، وقال:

- «تعلم يا شيخ بحيرى أنى أخوك..».

- «بالتأكيد..».

- «وأنى أجلك وأقدرك حق قدرك..».

- «مفهوم..».

- «وأن الأمور فى هذا البلد تسير بطريقة خاصة..».

توقفت حركة أنامل الشيخ التى كانت تستخدم المسبحة، ونظر إلى شيخ المسجد نظرة ذات معنى، وقال:

- «هدانا وهداك الله.. ادخل فى الموضوع مباشرة فلست الذى يرهب مواجهة القضاء والقدر.. قل كلمتك..».

أطرق شيخ المسجد هنيهة، ثم أخذ يشرح للبحيرى تعليمات وزراة الأوقاف الخاصة بمنع أية دروس دينية فى المساجد إلا من قبل الجهات المختصة، وعدم عقد أية اجتماعات من أى لون، بل إن موضوعات خطب الجمعة والدروس اليومية ترسل إليهم من الوزارة لمجرد التنفيذ، وهذه كلها إجراءات أمن، تجنبًا للتيارات السياسية التي تندس أحيانًا بين المصلين رواد المساجد، وهو أمر حدث كثيرًا فى السنوات الماضية، واختتم شيخ المسجد كلامه قائلاً:

- «ولهذا ترى أننى كرجل مسئول فى حيرة من أمرى..».

هز الشيخ البحيرى رأسه قائلاً:

- «الآن فهمت..».

- «كنت واثقًا أنك ستقدر الظروف، وتسامحنى..».

- «لا ذنب لك..».

ومال شيخ المسجد على أذن البحيرى قائلاً:

- «أنا واثق أنك لن تذيع السر.. إنه أمر من المباحث العامة..».

وهتف الشيخ فى دهشة:

- «لماذا؟؟».

- «إنهم متأكدون أنك لست ذا صبغة سياسية . . لكن دروسك ودروس غيرك فن، غير الوعاظ الرسمين، لا تتقيد بتعليمات الوزارة، ومن ثم فإن الكثيرين من أعضاء الجماعات المتطرفة يتخرجون من تحت عباءتهم . . هكذا قالوا . . يعنون أنكم تفتحون الطريق أمامهم . . » .

وبعد فترة صمت أخذ شيخ المسجد يتحدث عن الأوضاع الشائكة، والقبضة الحديدية التى تحكم البلد، والعنف فى معالجة أمور المعرضة أو النقد، والبطش بما يشتم منه المخالفة، أو الخروج على الميثاق، وعدم احترام أجهزة الأمن لحرمة الدين والعلم، وتقاليد الأسرة ومواصفاتها، وحرية الفكر وكرامته، ثم استطرد فى أسف عميق :

- «نحن نخاف على أرزاقنا وعيالنا . . فالمسئولية خطيرة . . » .

تمتم البحيرى قائلاً :

- «إنى أعذرك . . لكن أليس غريبًا أن . . » .

وأمسك البحيرى عن الكلام، لكنه شعر أنه يتكتم الحقيقة . . وهو أمر يؤلمه، وينال إيمانه، وسمع شيخ المسجد يقول :

- «أتشك فى إخلاصى لك؟؟» .

تنهد البحيرى، وقال :

- «أردت أن أقول فى بلدنا المسكين . . بعض الأفراد يكفرون بالله، ويجاهرون بذلك . . فلا يؤاخذهم أحد . . لكن الذين يعترضون على السلطة نقطع رقابهم . . أو يسجنون، ، أو يعذبون . . » .

وانفجر شيخ المسجد باكيًا عند سماعه لهذه الكلمات، وحاول هو الآخر أن يفعل كما يفعل العامة، فاختطف يد البحيرى محاولاً تقبيلها، وهو يقول: «سامحنى يا شيخ . . ادع لى ياشيخ» لكن البحيرى جذب يده بسرعة وهو يقول:

- «لا تقبل يدى . . فقد قيل إنها السجدة الصغرى . . » .

خرج الشيخ البحيرى من المسجد هائمًا على وجهه يفكر، كان يشعر أن الدنيا تضيق فى عينيه، وأنها تبدو كسجن ملموس، أين يذهب؟؟ «امضِ فى الطريق يا بحيرى . . إلى الله، لا تغضب من أحد يا بحيرى ادعُ لهم الهداية . . واسأل الله العافية يا بحيرى فما أوتى أحد بعد اليقين خيرًا من العافية . . وعش مع النور ينهزم الظلام، وترنم يا بحيرى بالحق الأعظم فتفنى خفافيش المظالم . . واقهر نفسك يا بحيرى تنتصر على الشيطان . . كل حلالاً طيبًا تزك نفسك، ويطهر قلبك وقل يا رب، ولا تقصد ذا نفوذ أو سلطة ليمنع عنك المطاردة والرقابة . . اقرأ فى وجوه الخلق، وصفحات الكون، ولا تجعل نفسك أسيرة الكتب وحدها . . وعش عصرك كطبيب . . وقل مع رابعة العدوية :

فلـيـتـك تحلو والحـيـاة مـريرةُ

وليـتك ترضى والأنام غـضـابُ

ألا ليـت مـا بينى وبينك عـامـر

وبيـنى وبين العـالمين خـرابُ

فـإن صح منك الـود فـالكـل هينٌ

وكل الـذى فـوق التـراب ترابُ

دق بابه والليل داجٍ، وصمت البيت يوحى بالرضى والهدوء، كانت زوجه تجلس فوق سجادة الصلاة تتلو القرآن، أشرق وجهها بالبسمة حين رأته وقالت:

- «حمداً لله . . لماذا غبت عنا؟».

- «كنت أسبح فى ملكوت الله . . الموج العاتى لا تقوى عليه ذراعاى الواهنتان . . وزمجرة الرياح تصم الآذان . . وأنا أبحث عن زورق أرتاح فيه قليلاً . .».

- « كثيراً ما يصعب عليّ فهمك؟ أهى رؤيا أخرى غير رؤيا الخنجر المسموم؟؟».

قال لها:

- «اختلطت الوقائع بالرؤى، والصدق بالكذب، والأمانة بالخيانة،

حتى ضل الخلق، واضطربت المفاهيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا أبحث عن مسجد آخر للعبادة فيه . . » .

- «ماذا جرى؟؟» .

- «كما يجرى كل مرة . . » .

«ألم أقل لك الهجرة؟؟» .

- «لا هجرة بعد الفتح . . » .

- «وأين الفتح الآن؟؟ إنه الغزو من كل مكان . . » .

- «دون الهجرة أهوال وأهوال . . وهذه أرض الله . . » .

ثم ابتسم وقال :

- «ألا تعلمين؟؟ أوعز إلىّ أحد المخبرين بأن أقدم طلبًا للالتحاق بالاتحاد الاشتراكى . . وأفهمنى أن ذلك قد يوفر على الكثير من المتاعب، وإنى أستطيع أن أعطى دروسًا فى مقر الاتحاد كما أشاء . . . قلت له أنا من «حزب الله» صاح فى دهشة وأخبرنى أن هناك فعلاً حزبًا بهذا الاسم . . لم أكن أعلم . . » .

واستمر الشيخ فى الركون إلى بيته، كان يكتفى بالذهاب إلى عمله فى الصباح، ثم يتردد على مسجد صغير قريب من منزله يؤدى فيه الصلاة ثم ينصرف على الفور بعد أن يختم الصلاة . .

وفى أحد الأيام جاء إليه حسنين أبو زهرة، كان الوقت ليلاً، والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، وقد تعمد حسنين ذلك إذ إنه فى مثل هذا الوقت تندر الرقابة، ويأوى المخبرون السريون إلى بيوتهم، وحسنين يعلم أن باب الشيخ يفتح لأول طرقة، كان الشيخ وحيداً يقوم الليل، وإلى جواره المصحف وصحف الصباح، وعدد من الكتب القديمة والحديثة على السواء، وظل حسنين صامتاً حتى انتهى الشيخ من صلاته، وتعانقا فى ود عميق، شعر حسنين بدفء الصدق والحنان والرباط الوثيق، وتمنى أن يطول ذلك التلاحم البدنى والروحى، تمتم الشيخ بعد أن اتخذ مكانه المعهود:

- «الشوق يا حسنين لا تستطيع أن تعبر عنه الكلمات. .».

- «صدقنى يا شيخنا. . أنت أقرب إلىّ من أى وقت مضى. . أرى صورتك أمامى فى البيت والسجن والمسجد والشارع. . لا أستطيع فراقك. .».

أخذ الشيخ يتلو بعد أن استعاذ وبسمل:

- ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وأخذ حسنين يحدثه عما جرى له بعد الليلة المشئومة حينما أخذوهم إلى وزارة الداخلية، وكيف أن مدير السجن استدعاه،

وأجرى معه تحقيقًا إداريًا، وكيف أنه أغلظ له القول، واتهمه بالاستهتار، وبالعبث بالنظم والتقاليد العسكرية، إذ كيف يبيح لنفسه الانضمام لجمعيات دينية، والاشتغال بالسياسية، مع أن المفروض فيه أنه «رجل حكومة» ولا بد أن يتجنب مثل هذه الأمور الشائكة، إن لم يحاربها ويبلغ عنها المسئولين على الفور، ولم تفلح ردود حسنين وتوضيحاته للمدير، ولم تشفع له حججه أو سلامة نيته؛ لأن ما تقوله المباحث لا بد أن يكون حقًا لا مراء فيه. وهدده بالطرد من الخدمة أو النقل إلى الصعيد إذا لم يلتزم بالأوامر، ويبتعد عن تلك التجمعات المشبوهة، ولهذا بكى حسنين وقال:

- «وهكذا تراني يا شيخي مضطرًا للابتعاد عنك بجسدي لا بروحي..».

علق الشيخ بجزء من آية قرآنية:

- ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

وأخذ الشيخ يسأله عن بقية الإخوان، وماذا فعل بهم، فطمأنه حسنين وأخبره بأنه يلتقي بهم لمامًا، وأنهم على العهد سائرون، وبوصاياه ملتزمون، ولله ذاكرون، وسوف يقومون بوداعه إن شاء الله عند سفره إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج.

ولم تتحقق الآمال فقد علم الشيخ البحيرى في آخر لحظة أنه لن يسافر للحج بسبب «القرعة» التى أخطأته كما قيل له، يومها بكى الشيخ بكاءً مراً، حى ليخيل للرائى أنه قد أصيب في عزيز لديه، وأن الكارثة فادحة، والألم عميق، وهو يعلم أن كل شيء مكتوب، ولا مفر من قدر الله، لكن روحه كانت تهفو إلى الأرض الطيبة التى طالما تغنى بها، وإلى بيت الله الحرام الذى تجذبه إليه أشراق عارمة، وأخذ الشيخ يومها يردد أغنيته الشجية وهو يبكى:

يا راحلين إلى «منى» بقيادتى

شوقتموا يوم الرحيل فؤادى

سرتم، وسار وليلكم يا وحشتى

والشوق أرقنى وصوت الحادى

فإذا وصلتم سالمين فبلغوا

منى السلام إلى النبى الهادى

●●●



استطاعت «إنتصار» أن تنقل «جاد الله» إلى قسم جديد من أقسام التزييف ألا وهو طبع العملة الصعبة، الدولار الأمريكى بالذات، إذ إن سوقه أصبحت رائجة فى الخفاء، وابتدأ جاد الله يتدرب على الطبع، ثم تحول إلى الترويج أو التوزيع، ومن المعروف أن للتوزيع مجالات خاصة محفوفة بالمخاطر، لكنه كان مندفعًا أشد الاندفاع، كيما ينتهى من سداد التزاماته بالنسبة للمنزل الذى اشتراه، والأرض التى أصبحت فى حيازته، ولم تكد تمر بضعة أسابيع قليلة حتى تحقق له ما يريد، لكن هل شبع جاد الله؟؟ لقد تفتحت شهيته للمال أكثر وأكثر، وأخذت تبرق فى الأفق مشاريع وآمال جديدة، تداعب خياله فى اليقظة والمنام، فهو يريد أن يضع فى صندوق التوفير ألف جنيه على الأقل باسم كل فرد من أفراد أسرته، ويفكر فى افتتاح محل بقالة كبير به تليفون، كما فكر فى اقتناء المواشى فى القرية، إن الآمال تتسع، والدنيا تقبل عليه بصورة لم يحلم بها من قبل،

و«إنتصار» ذلك للغز الغامض تفتح له ذراعيها، وتغرقه فى ألوان المتعة والنعيم.

ولم يبقَ أمامه عقبة سوى محفوظ.. إنه يشعر أن محفوظ هو الخطر القادم، فلن يطول بقاؤه فى السجن، وهو يخاف أن يكون خروج محفوظ من الحبس بداية لأفول نجمه، وهى قضية شائكة، وتحتاج إلى حسم، فماذا يفعل فيه؟؟ هناك عدة وسائل للقضاء عليه، فليختر واحدة منها، هل يدس له السم فى الطعام عن طريق أحد عملائه؟ هل يلفق له تهمة أو قضية جديدة، ومن ثم يصدر ضده حكم جديد، ويظل حبيسًا؟ جاد الله يعتقد أن الموت هو الحل الحاسم، لكن جريمة القتل قد تنكشف فيدخل هو السجن وتطير «إنتصار» من القفص الذهبى، ويخسر كل شىء، ليت جاد الله يستطيع أن يفاتح أحد خلصائه فى هذا الموضوع ليستنير برأيه، لكن جاد الله ليس له أصدقاء مخلصون، ثم إن مسألة كهذه تحتاج إلى تأنٍّ وحذر وكتمان شديد.. إن الحيرة تأخذ بتلابيبه، ليت إنتصار وافقت على الطلاق من محفوظ إذن لتزوجها جاد الله على الفور، وتكون العقدة الرئيسية قد حلت مبدئيًا، لكنها تصر على الارتباط بمحفوظ برغم خيانتها له، بل يبدو أنه يعرف سلوك زوجته، ولا تستفزه الغيرة، أهو اتفاق مسبق بينهما، أن يكون لكل منهما حياته الخاصة، وأن يظل «العمل» أو المنفعة التى تربط بينهما إلى الأبد؟؟ ما هذه الأحاجى والألغاز التى لا يستطيع جاد الله فهمها أو تقبلها؟؟

وفى خضم هذه الحيرة القاتلة جاءت إلى السجن أنباء مفاجئة كان لها صدى واسع النطاق، لقد أعلن بمناسبة عيد الثورة: تقرر الإفراج عن المسجونين الذين قضوا نصف العقوبة المحكوم عليهم بها، بشرط أن يكونوا حسنى السير والسلوك، وألا يشكلوا خطورة على الأمن العام، وهذه الفقرة الأخيرة تعنى أن قرار العفو لن يشمل السياسيين، وجن جنون جاد الله عندما علم أن محفوظ سيكون من بين المفرج عنهم.

إن الأحداث تجرى بسرعة رهيبة، تفوق طاقة جاد الله فى التفكير والتدبير، وهو لم يتخذ إجراء حاسمًا حتى الآن بخصوص محفوظ، أيظل واقفًا هكذا يتفرج حتى يخرج محفوظ، وتستقبله إنتصار بالقبلات والأحضان، ثم يغلقان بابهما فى وجهه، ويقف هو كالكلب الذليل، يلوك الخواء والعدم، ويعض بنان الحسرة والندم، ويصبح طريد الجنة التى نعم فيها تلك الأيام الجميلة التى لم يرَ لها مثيلاً طوال حياته المجدية؟؟

ذهب إليها والهلع يأخذ بمجامع نفسه، قال:

- «سيخرج محفوظ بعد فترة وجيزة..».

قالت وهى تضحك كالعهد بها فى ميوعة:

- «بشرى خير.. سأكافئك عليها..».

- «أهكذا ببساطة؟؟».

- «وماذا تريد غير ذلك؟؟».

- «وأنا . . أين أذهب؟؟».

- «لقد استمعت بما فيه الكفاية يا جاد الله . . لا تكن طماعًا . .».

استل خنجراً من جيبه، وقال وعيناه تتقدان شرراً:

- «الموت ولا هذا . .».

نظرت إليه وجدت الإصرار والجنون فى عينيه، وأيقنت أنه يستطيع أن يرتكب أية حماقة، إذا ما استحكم اليأس فى قلبه، وهى تعلم منذ البداية أنه إنسان غير طبيعى . . وكان عليها أن تتصرف بمنتهى التعقل والدهاء، لهذا تظاهرت بعدم الاكتراث، وقالت وهى تنزع سترتها، وتبرز مفاتنها:

- «وهل صدقت أيها الأبله أنه زوجى . .».

وقع الخنجر من يده، ونظر إليها فى ذهول، أيمكن أن يكون ما تزعمه صحيحًا؟؟ وعاد ليلتقط الخنجر، ثم يهرول نحوها، كانت تصب كأسًا من الويسكى، وكانت مدركة تمامًا لما يفعل، وبذلت جهدًا كبيراً كى تتماسك وتبدو طبيعية:

- «محفوظ ليس زوجى . . لم أتزوجه قط . .».

- «وما الدليل؟؟».

هزت كتفيها فى استهتار وقالت :

- «أتريد البطاقة أم جواز السفر أم ماذا؟؟» .

وظل ينظر إليها فى حيرة، واستطردت تقول :

- «أنت الرجل الوحيد يا جاد الله الذى أعجبنى . . والرجال كالطعام . . أنواع وألون . . يعجبنى فيك تفكيرك، وفى قيامك بالواجبات التى أوكلتها إليك بخصوص العملة، وتعجبنى فيك أشياء أخرى . . أما محفوظ فهو يتفوق عليك فى شىء واحد . . إدارة أمور الشركة . . وهو فيما عدا ذلك يرضى بما ألقيه إليه من فتات . . » .

أسكرته الكلمات، وفاح عطر يعرفه جيداً، ذلك العطر الذى يذكره بفحولته وحيوانته، والوحش الذى يستكن فى داخله، احتضنها فى عنف، فقالت :

- «لا يمكن الاستغناء عنك يا جاد الله للخطة . . لو هجرتنى يا جاد الله فأنا التى سأقتلك . . وهناك الكثيرات من النساء اللاتى يعملن فى الشبكة، ويستطيع محفوظ أن يختار واحدة منهم . . أما أنا فقد اخترتك منذ رأيتك لأول مرة . . كنت أرقبك وأنا آتى لزيارة محفوظ . . وأنا أسلمك «الأمانات» لتوصلها إليه . . . عندئذ قلت لنفسى هذا هو الرجل الذي تبحثين عنه يا إنتصار . .

وعلى الفور رسمت الخطة مع الملعون محفوظ . . فكان بيننا بعدها ما كان وارتباطنا أبدى لن ينقسم إلا بالموت . . » .

قال والفرحة تغمر كيانه كله :

- «ولماذا لا نتزوج؟؟» .

- «إن شئت غداً . . » .

- «دون تردد؟؟» .

- «لماذا أتردد؟؟ لقد تحققت كل آمالى فيك ، وأعطيتك من نفسى كل شىء ، أليس هذا دليلاً كافياً؟؟» .

- «بلى . . » .

- «أيها الأحمق ، متى تفهم؟؟» .

قال وهو يحتضنها بحرارة :

- «الآن فهمت . . » .

«لم تفهم أى شىء . . أتدرى لماذا؟؟» .

- «لماذا؟؟» .

- « لأن الوحش الذى فيك لا ينام أبداً . . » .

- «سأحاول أن أكون أفضل ، بعد أن نتزوج . . أعدك بذلك» .

قالت إنتصار فى اعتراض مثير :

- «لا . . لا . . لتبقَ كما أنت!! الخطر كل الخطر أن تتغير».

- «إنك تحيرينني . . ».

- «لكن . . أليست حيرة لذيذة؟؟؟».

امتدت بهما السهرة، وأكلا ما طاب وشربا، كانت الأمور تسير على ما يرام، فقد انتعشت أحوال جاد الله المالية، وتحقق له بعض ما يريد، وشعر بأن المستقبل آمن لحد ما، وتحصل على خبرة لم يكن ليتحصل عليها خاصة وهو يجوب الأسواق، ويوزع العملة، ويشترى ويبيع، ويستخدم مهارته وذكاءه، محتاطًا أشد الاحتياط، ومعتمدًا على حسه البوليسى، وعلى ما يسمعه ويراه فى عالم الجريمة، وبدا واضحًا أن إنتصار قد أنست إليه، وأحسنت استخدامه، حتى توزيع العملة الصعبة، وهو يأتى فى الدرجة الأولى من الخطورة، قد أداه جاد الله على أكمل وجه، لكن إغراق السوق بالعملات الزائفة قد لفت نظر رجال المكافحة، فأخذوا يزيدون من نشاطهم فى المراقبة، وعلمت إنتصار من عملائها فى السوق ومن بعض المخبرين الذين جندتهم لحمايتها مقابل مرتبات شهرية، أن وزارة الداخلية منزعجة لهذا الطوفان من التزييف، وأنها بصدد تغيير خططها، وإدخال عناصر جديدة من رجالها، وبات جليًا أن «إنتصار» يجب أن تغير من أسلوبها، بل الأفضل أن تتوقف مؤقتًا عن

إصدار عملات جديدة، وأن تنفذ ذلك بكل حزم ودقة، وهى تعرف جيدًا متى تتوقف ومتى تبدأ، ولا تنزلق إلى المخاطر والمغامرات الطائشة التى يجرها إليها الجشع، بل إنها اتخذت إجراء مثيرًا كاد جاد الله يفقد رشده بسببه.

لقد ذهب إليها كالمعتاد ذات مساء فى شقتها المفروشة، وكم كانت فى دهشته عندما فتح له الباب رجل غريب يبدو فى الخمسين من عمره، ويرتدى لباسًا عربيًا ذا عقال أسود، وغطاءه ذا نقوش زرقاء على رأسه، ومن خلف الرجل امرأة محجبة، وخمسة أو أربعة من الأطفال..

قال جاد الله فى دهشة:

- «أليست هذه شقة الست إنتصار..».

- «لا أدرى.. ولكننا استأجرنا هذا المسكن أمس..».

- «وأين ذهبت الساكنة السابقة؟؟».

- «علم هذا عند الله.. فقد تسلمنا الشقة مفروشة، ولم يكن بها أحد.. تستطيع أن تسأل صاحبة البيت، وهى امرأة عجوز تسكن فى السطوح..».

انحنى جاد الله شاكرًا، ثم اعتذر للرجل على الإزعاج الذى سببه له، وأخذ يصعد السلم مسرعًا، حتى بلغ السطح وهو يلهث،

كان قلبه يخفق فى حيرة وقلق، ولماذا لم تخبره «إنتصار» بنيتها على الانتقال؟؟ وما هو سبب هذا التغير المفاجىء؟

- أطلت عليه عجوز فى الخامسة والسبعين، ضعيفة البصر، منحنية الظهر بيضاء الشعر، مُغَضَّنة الوجه، وقالت دون أن ينطق :

- «ليس لدى شقق خالية . . » .

قال وهو يحييها فى رقة :

- «مساء الخير . . أتيت أسأل عن إنتصار . . أين انتقلت؟؟» .

قالت وهى تحاول أن تتذكر :

- «إنتصار؟؟ لا أذكر أحداً بهذا الاسم» .

- «الساكنة التى رحلت أول أمس . . كانت فى الدور الأول . . » .

- «لا أعرف . . كانت الشقة باسم رجل . . لعله زوجها . . إن العقد لدى بالداخل . . تعال لتتأكد . . » .

هى الشقة نفسها، لكم اسم الساكن رجل فعلاً «فايز إبراهيم سلامة» ترى من يكون فايز إبراهيم سلامة هذا؟؟ إن أمرك يا إنتصار يزداد غموضاً وإبهاماً، لكن أين ستذهبين منى؟؟ سوف أفتش عنك القاهرة شبراً شبراً، وملهى ملهى، وسوقاً سوقاً، ولن أكف عن البحث حتى أجدك، ولو كلفنى ذلك حياتى . .

- «أتشرب القهوة؟؟».

- «شكراً . . . يا أمي . . ».

ونزل الدرج متكاسلاً يفكر في عمق، كان يمنى نفسه بالأماني في سهرة ممتعة، أصبحت ليالي إنتصار من ضروريات حياته، إنه يشعر الآن بالرغبة العارمة أن يحضنها بين ذراعيه واعتصارها، ويشعر برغبة جنونية في الاستماع إلى صوتها الدافيء، والنظر إلى عينيها الساحرتين، والخوض معها في الحديث الشجي الملتهب، لقد تيقن الآن أنه لا يمكن أن يعيش بدونها، ولو انسحبت من حياته إلى الأبد لجن جنونه، إنها المستقبل والحاضر، والغاية والوسيلة، ومفتاح الأمان لحياته التي حلم بها طويلاً، أعطته كل ما يتمناه، وجسدت له فلسفته، وقدمت له الدليل الأكيد على صحتها، إن صح ما يقال فإن إنتصار هي النصف الآخر له، النصف الذي كان يبحث عنه منذ كان، ولذا فإن بقاءه بدونها مستحيل، ولو أصبح أثرى أثرياء الأرض، فلن يمكنه العيش بدونها، لكن لماذا فعلت ذلك دون سابق إنذار؟؟ أيمكن أن تكون هربت من خطر متوقع، ولم يكن لديها الوقت الكافي لإخباره بنيتها؟؟ هذا هو الاحتمال الأقوى، إن الإفلات من الخطر المفاجيء يقتضي تحركًا سريعًا؛ لأن البطء مدمر، والتأخر ضياع. . وندم جاد الله على تأجيل الزواج لمدة أسبوع، ومع أنها كانت على استعداد تام للزواج خلال أربع

وعشرين ساعة. . ليته فعل ، إن الأمر لم يكن يحتاج إلى انتظار وترتيب ودق الوقت من الرعب فجأة. .

أيمكن أن محفوظ هو السبب؟؟

ترى هل غدرت إنتصار، وخانت العهد، وانحازت مرة أخرى لمحفوظ؟؟ لو أن الأمر هكذا، فلن يفلت منه محفوظ هذه المرة، سوف يسحقه سحقًا، لسوف يقتله، هذه المرة دون تردد، لو حاول فى السابق أن يقضى عليه فى لسجن، دبر له دس السم فى الطعام، لكنه نقل إلى المستشفى ليلة التنفيذ بحجة «حمى مشبهة»، كما أوعز من قبل لأحد السجناء كى يفتعل معه معركة ويفتك به ويروح محفوظ ضحية مشاجرة أو ضرب أفضى إلى الموت، ولن يكون الحكم على السجين «الفاعل» إلا مدة قصيرة، ثلاث أو أربع سنوات، وما أكثر السجناء الذين يفضلون البقاء فى السجن، ويكرهون الإفراج، ويشفقون على أنفسهم من حياة «الحرية» فى الخارج. . حيث المطاردة. . والجوع. . وارتكاب الأخطار والحماقات، والتعرض للموت، وصراعات الدامية بين العصابات المتناحرة المتنافسة، لكن محفوظ أفلت حينما جاء أمر الإفراج فجأة، نتيجة للعفو عن نصف مدة العقوبة بمناسبة أعياد الثورة. . وكتب لمحفوظ عمر جديد. . ولعل جاد الله ارتاح كثيراً لنجاة محفوظ لأن إنتصار كانت راغبة فى ذلك، وتصر عليه. . ترى هل

هربت إنتصار لتسعد محفوظ بلياليها الحلوة بعد أن عانى فى السجن من الحرمان والقهر والكبت . .

كان جاد الله يخرج من نوبة عمله فى السجن ليبحث عن إنتصار، وأخذ يجوب شوارع القاهرة وحواريها وأزقتها وملاهيها، ويعود آخر الليل مرهقًا مكدودًا، خاوى الوفاض، إن الخطأ الذى وقع فيه هو إنه لم يحاول أن يعرف أحدًا من الشبكة التى تديرها، كان مكتفيًا بها، واثقًا فيها، لا يهمه سواها، فهى كل شىء بالنسبة له، لو أن فى يده خيطًا رفيعًا، لاستطاع أن يتتبعه، ويصل إليها، لكنه بعد رحيلها، سقط فى فراغ رهيب، يتلفت حوله فلا يجد إلا الضياع والحرمان، حتى الأرض الزراعية التى اشتراها، والبيت الذى أصبح ملكًا له، والمدخرات التى يحتفظ بها فى بيته، ودفاتر التوفير لأبنائه، كل هذا لم يعوضه عن اختفاء إنتصار، إذ ما قيمة أن يكون ثريًا أو وحشًا -أو حتى حيًا- بدون إنتصار؟؟ إن أمامهما معًا طريقًا طويلاً لا بد وأن يسيرا فيها، وأن الذى تحقق مجرد بداية . .

فوجئ جاد الله فى المساء بحسنين أبو زهرة يدخل عليه، لقد سادت بينها قطيعة تلقائية منذ أسابيع . . وكان جاد الله مرتاحًا لذلك، كان يحب حسنين، لكنه فى الوقت نفسه يخاف منه؛ لأن حسنين دائمًا يتصدى له بديلاً عن ضميره النائم ويذكره بالخطأ، ويلوح له بعقاب الله، وينذره بسوء المآل، حتى دون كلام، كانت

نظرات حسنين ومصمصته بشفتيه أبلغ من أقواله، ولشعور غريب لا يدرى جاد الله كيف استقبل حسنين بغير قليل من الرضى، بعد أن كان ينكر نفسه، ويوحى لميمونة بأن تصرفه . . أما الآن فالأمر يختلف . . ألقى حسنين السلام وجلس صامتًا، وأخذ يجيب على ترحيب جاد الله باقتضاب، وترك حسنين الشاى أمامه دون أن يقربه حتى كاد يبرد . .

- « أراك صامتًا على غير العادة . . » .

هكذا تكلم جاد الله، تنهد حسنين، وقال :

- «جئت لأطمئن عليك . . » .

- «لم تعد تذهب للشيخ البحيرى . . » .

سدد إليه نظرات ذات معنى وقال :

- «انفض السامر . . وهل الدنيا إلا سوق يزدحم، ثم ينفض؟» .

- «كلماتك يا حسنين تشعرنى بالموت . . » .

- «وهل أفلت منه إنسان . . » .

- «لماذا لا نعيش ونسعد وننساه . . » .

- «كفى بالموت واعظًا يا جاد الله . . » .

وسادت فترة صمت قال حسنين بعدها :

- «عندما يموت الإنسان، لا تكون لديه أدنى قدرة لتغيير أى شيء مما جرى فى حياته . . جفت الأقلام وطويت الصحف . . ».

شعر جاد الله كأنه يختنق، تتابعت أنفاسه فى ضيق، وقال فى توتر:

- «اشرب الشاى يا حسنين . . ».

- «فى الماء غنى عنه . . ».

- «لكنه ينعش الدماغ، وينشط الجسم، و . . ».

قاطعه حسنين قائلاً:

- «الرسول وأصحابه أقاموا الدنيا وأقعدوها دون قهوة أو شاى أو سجائر . . ».

- «تتحدث بلغة البحيرى . . ».

- «البحيرى متربع فى قلبى . . لأنى أحبه . . ».

شرد جاد الله لحظات، وقال:

- «صدقت إن من يحب إنسانًا، يجده دائمًا متربعًا فى قلبه».

- «هل جربت ذلك يا جاد الله؟».

- «نعم . . لكن ليس البحيرى على أى حال . . ».

- «هذا من سوء حظك . . ».

ودخلت ميمونة وهى تحمل كوبًا من الماء وتقول :

- «هل سمعتم ما جرى؟ لقد دخل لصوص مسكن الجاويش عوضين، وسرقوا الراديو وذهب امرأته والمال الذى ادخره . . وزوجة عوضين تصرخ مستغيثة . . . ولا أثر للجناة . . ».

قال جاد الله ساخراً :

- «لسوف يذهب إليه حسنين ويخفف عنه ببعض المواعظ عن الصبر ، والرضى بقضاء الله وقدره، أليس كذلك يا حسنين؟».

نظر إليه حسنين فى ألم وقال :

- «لماذا أبلغت عن الرجل الطيب؟؟».

أمسك جاد الله بزنده فى تشنج وقال :

- «ماذا تقصد؟؟».

- «البحيرى . . والمباحث العامة . . ».

- «إن بعض الظن إثم يا حسنين . . ».

- «لقد واجهونا بأقوالك وتقاريرك . . ».

- «كاذبون . . ».

- «لقد تأكدنا . . ».

- «مستحيل، لأن المباحث لا تكشف عن مصادر معلوماتها أبدًا . . ».

- «مجرد كلام . . » .

قال جاد الله فى حدة :

- «لم أفعل . . » .

- «حسابك عند من يعلم الخفايا والخبايا يا جاد الله . . لكنك وقعت فى خطيئة كبرى حينما عاديت «رجال الله» دون سبب . . قد تسرق . . أو تسكر . . أو تكذب . . لكن الافتراء على الأطهار الأتقياء الأبرياء كبيرة من الكبائر . . إنك تريد أن تطفئ نور الله . . » .

اهتز جسد جاد الله من وقع الكلمات ، شعر أنها تنفذ إلى قلبه فقطعته ، وإلى ضميره النائم فتوقظه ، وإلى استهتاره فتصفعه ، وإلى غفلته ليفيق ، وجاد الله يريد أن يظل ساردًا فى دنياه الخاصة ، لا يعكر صفوه ناصح ، ولا يوقظه مخلص ، ولا يغير مساره أحد ، لقد فعل جاد الله ما فعل ضد الشيخ البحيرى فى لحظة من لحظات الاندفاع والتهور ، قد تكون نزوة طارئة ، وربما أرد أن يثبت إخلاصه لدى المسئولين ، فيدعم مركزه ويجد لظهره سندًا يأوى إليه عند الضرورة ، أو لعل ذلك يهيئ له الفرصة لترقية جديدة يسبق بها زملاءه ، لكنه لا يجد المبرر أمام حسنين الآن ، لذلك فالإنكار هو الشيء الوحيد الذى يمكنه أن يتصدى به لا تهام حسنين الجارح المؤلم .

- «تعلم يا حسنين أن المخبرين يزحمون المجالس والطرقات . . » .

- «لكنهم لا يتعرضون للبحيرى وأمثاله . . » .

-«أنت واهم . . كل الطوائف الدينية . . حتى رجال الموالد وفرق الصوفية لهم ملفات فى المباحث العامة ، وتحت المراقبة . . الزم بيتك يا حسنين . . » .

- «ولماذا لا تفعل ذلك؟؟» .

- «أنا أسعى على رزقى . . ولا أترك بيتى إلا لذلك . . » .

- «أتريد أن أفعل مثلك؟؟» .

التفت إليه جاد الله فى دهشة :

- «وهل أفعل ما يشين؟؟» .

ولم يعلق حسنين بكلمة ، وبقى صامتًا بعض الوقت ، ثم فاجأ جاد الله بقوله :

- «أنا أبحث عن شقة لفريد ابنى . . إنه هو الآخر يريد أن يتزوج . . » .

افتر ثغر جاد الله عن ابتسامة واسعة ، ودق قلبه من الفرح ، لقد أصبح من أصحاب العمارات ، الناس يجرون وراءه طلبًا لاستئجار شقة ، حتى حسنين جاء ، لكنه قبل أن يطلب الشقة أخذ يحدثه عن الموت والدنيا الفانية .

- «وأين تجد شقة الآن؟؟ أصبح ذلك من رابع المستحيلات كما يقولون . . ».

رد حسنين فى حزم :

- «فى بيتك الذى اشتريته . . ».

قهقه جاد الله ، ثم أشار إلى عياله قائلاً :

- «وهؤلاء؟؟ أين يسكنون عندما يكبرون؟؟».

-«أنت ترفض . . ».

- «بل أعتذر لسبب وجيه . . ».

- «هذا شأنك يا جاد الله . لم أكن أفكر فى أن أفاتحك فى أمر كهذا لأنى أعرفك . . لكن أم فريد ألحت علىّ . . ».

واستأذن حسنين على الفور وخرج ، كان جاد الله يحس بمشاعر جديدة عليه تمامًا ، إنه يملك ، والناس فى حاجة إليه ، يستطيع أن يعطى ويمنع ، لكنه صمم ألا يعطى ، لسوف يؤجر الشقق مفروشة ، سوف تدر عليه خمسة أضعاف مرتبه ، فكيف يضحى بذلك لإرضاء قريب أو صديق؟؟ ليذهب الجميع إلى جهنم . . فالدنيا مصالح ، وهو أحق بالنفع من غيره وعادت صورة «إنتصار» تلح من جديد . . الوجه الهارب الذى يطارده صباح مساء ، ولا يتركه يهدأ أو يستريح . . .

●●●



عاد محفوظ إلى حياة الحرية وهو أشد ما يكون شوقًا إليها، إنه يسير فى الشارع ينظر يمينًا ويسارًا متفحصًا وجه القاهرة الجذاب الجميل، ويشق طريقة فى الشوارع المزدحمة دون أن يعبأ بما حوله من بشر يملئون الطرقات، لكنه يشعر أن قيودًا خفية لم تزل تحد من حركته ونشاطه، إن سنوات السجن الطويلة تجعله يتحرك بحساب، وينقل خطاه بحذر، ويتأدب فى الحديث والحوار، ويبالغ فى الاعتذار، كأن الناس جميعًا من حوله هم السادة وهو العبد الذليل، لكى يعيش فى السجن بدون مشاكل كان عليه أن يتنازل عن كبريائه، وينسى جبروته، ويخفض جناح الذل والمسكنة، لم يكن ضعيفًا، لكنه تظاهر بالضعف، ولم يكن جبانًا، لكنه أخفى شجاعته، فالقوى فى السجن لا بد أن يذوق الأمرين حتى يتهاوى ويستسلم، والشجاع تُكال له اللطمات والنكسات كيما يرضخ، كان حريصًا على أن ينجو من السجن بجلده، حتى يعيش ويحقق ما يحلم به من آمال، ولهذا استخدم كل حيلة، ولجأ

إلى أى وسيلة، حتى يحوز ثقة «جاد الله» مسئول العنبر، وحتى يحقق لنفسه الاحترام بين السجناء، أليس هو وسيلتهم للاتصال بالخارج وتهريب الممنوعات؟؟ كان يتزلفون له، ويلجئون إليه فى المشاكل والملمات، ويؤدون له ما يريد؛ لأن محفوظ أهم لديهم من جاد الله، والسجن مهما كان الأمر فترة عابرة، ولذا فإن حياتهم مع جاد الله مؤقتة، لكن علاقاتهم مع محفوظ قد تمتد من السجن إلى خارجه، ولذلك ذهل محفوظ حينما جاءه أحد السجناء ليقول له:

- «جاد الله ينوى بك شراً..».

- «كيف؟؟».

- «أنه يتآمر عليك، ويريد قتلك.. نحن فى حيرة، لماذا يفعل ذلك والجميع يعرفون أنك مساعده الأمين..».

ولم يضيع محفوظ وقتًا، إنه وحده هو الذى يعلم دوافع الجريمة التى يريد جاد الله أن يرتكبها، ومن المعروف أن جاد الله أحمق.. وحش ضار.. لا يردعه ضمير، تاريخه فى السجون وفى الخدمة العسكرية، بل وفى عزبة الباشا يؤكد ذلك، محفوظ يفهم أن جاد الله يريد أن يقضى عليه، حتى تصبح إنتصار له وحده، وحتى يحتل مكانة بارزة فى شبكة التزييف، وجاد الله حقود يريد أن يستولى على كل شيء، ثم إنه يخاف ذكاء محفوظ فى الفترة الأخيرة من غدر جاد الله، الذى أصبح يتصرف بما يشبه الجنون، ولذلك فإن

محفوظ سارع بابتلاع كمية من الشطة السودانى مع الحلوى الطحينية، وهى طريقة مجربة بين السجناء لرفع درجة حرارة الجسم، والإصابة بما يشبة الحمى، وهكذا نقل محفوظ إلى مستشفى السجن للعلاج بعيداً عن جاد الله، والمعروف أن مستشفى السجن له نظام خاص فى إدارته وطعامه وشرابه، فالسجانة الذين يشتغلون فيها من الممرضين المدربين، ولها سور خاص وباب حديدى مغلق لا يدخله إلا من له عمل، واطمأن محفوظ إلى حد كبير داخل جدران المستشفى، ونام على سرير، وحرص على أن يعد طعامه بنفسه، ولو على نفقته الخاصة حتى لا يدس له أحد السم فيه، واتصل بإنتصار وأبلغها أن «تتفاهم» مع طبيب السجن، كى يبقيه بالمستشفى أطول فترة ممكنة حتى يتصرف، ولو أدى ذلك إلى أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال.. وشاء الله أن يصدر العفو عن نصف المدة، ويخرج محفوظ سليماً دون أن تطاله يد جاد الله، وارتبك جاد الله أشد الارتباك حينما باء مخططه بالفشل، بل كاد يُجنّ عندما ذهب إلى مسكن إنتصار فوجدها قد رحلت، إن تزامن الإفراج عن محفوظ مع اختفاء إنتصار، قد زرع فى قلبه يقيناً أنه قد يصبح عن قريب خارج اللعبة، وتتبخر الآمال الكبار التى كان يحلم بها، إذن فقد كان على حق حينما توجس خيفة من منافسه محفوظ له، ومحفوظ لديه مميزات تتعلق بوسامته وثقافته وبراعته فى المجاملة والتعامل والحديث الجذاب، وصمم جاد الله أن يبحث

عن إنتصار وعن محفوظ . . صحيح أن الدنيا واسعة . . لكنها أحيانًا تضيق، وتبدو كرقعة الشطرنج، لن ييأس جاد الله أو يمل . .

حينما التقى محفوظ بإنتصار فى مسكنها الجديد، فى مكان منعزل بمنطقة «نزلة السمان» بشّت لمقدمه سعيدة نشطة، وهتفت فى حرارة يعرفها محفوظ جيدًا:

- «مرحبًا بسيد الرجال . . ».

- «لا تبالغى . . ».

- «لقد أنقذت حياتى، وضحيت بنفسك من أجلى، فكيف أنسى ذلك؟؟».

تذكر محفوظ عشية قبضوا عليه متلبسًا بالأوراق المالية المزيفة، والضغوط الرهيبة التى تعرض لها حتى يعترف على أفراد الشبكة، لقد ضربوه ضربًا موجعًا حتى أغمى عليه، وتركوه جائعًا بدون طعام، ظامئًا بدون ماء، عاريًا فى عز البرد بدون ثياب، وفى حبس انفرادى، لكنه صمد حتى مرّ التحقيق بسلام، وظن المحققون أنه كان يعمل فى التزييف بنفسه ولنفسه وأنه ليس لديه شركاء، ولم يجدوا مناصًا من إثبات اعترافه، على الرغم من الشكوك التى راودتهم، وطوال المحاكمة والحجز، كان محفوظ يجد المال الذى يريد والمحامى الذى يدافع عنه، والسجان الذى يحضر له

الممنوعات، لقد وفت إنتصار بالتزاماتها نحوه، وظلت تفعل أى شيء.. أى شيء حتى تحافظ عليه، وتحقق له الراحة إلى أن خرج.. قالت إنتصار:

- «وهل أنسى أنك كنت تنام فى السجن على السعف والبلاط البارد، وأنا أتقلب على سرير لين ناعم؟ لا أكتمك.. كنت على استعداد أن أشترى حياتى بأى ثمن يا محفوظ.. إن ليلة واحدة فى السجن كفيلة بأن تقضى علىّ.. فكيف أنسى فضلك وشهامتك..».

تناول الكأس من يدها، ودفع بما فيه فى جوفه وهو يقول:

- «لشد ما ينغصنى هذا المخلوق القذر!!».

فهمت ما يرمى إليه، واستبد بها القلق حينما رأت الحزن يكسو ملامحه الصارمة، لكنها مسحت على شعره فى رقة وقالت:

- «كان كل شيء من أجلك!!».

شرد هامسًا:

- «قال لى إن زوجك جميلة وممتعة.. الليلة معها تساوى مليون جنيه.. قالها بوقاحة.. يومها ضحكت والألم يعصر قلبى.. أعرف أنك لست لى زوجة.. لكنى رجل.. إنى أعجب كيف قبلت أن..».

وطوّح بالكأس الزجاجية فاصطدمت بالحائط وتناثرت شظايا . .

- «أعرف أننا نحتقر المبادئ والأخلاق . . لكن الكلاب تغار . . شكله مقزز . . رائحته تزكم الأنوف . . ماذا أقول؟؟» .

قالت وقد طفرت الدموع من عينيها :

- «قل ما شئت . . فقد كنت مستعدة لأن أفعل المستحيل ، من أجلك . . وأن آتى أى تصرف مهما كان بشعًا حتى تعود . . »

كوّر يده وضرب بها على المنضدة فى عنف وهتف :

- «أى شىء . . إلا هذا . . » .

- «لعلى أخطأت يا محفوظ . . » .

وأخذت تجفف دموعها وتقول :

- «أنت الذى أرسلته إلىَّ . . وأنت الذى أشرت بأن يعمل معنا . . كان يهمنا أن نحقق ما نريد بأية وسيلة . . لم تكن كذلك من قبل يا محفوظ . . لشد ما تغيرت . . » .

وصبت له كأسًا أخرى ، وقدمت بعض الطعام وقالت :

- «ومن الأفضل أن ننسى . . » .

- «لا أستطيع . . كان هناك ألف طريقة وطريقة . . » .

- «كتب علينا الخطأ . . ولا أمل سوى أن نبدأ من جديد . . » .

جفف عرقه وقال :

- «هذه المرة لا بد أن نتزوج . . » .

كانت عبارته مفاجأة تامة بالنسبة لها ، لقد رفض ذلك العرض مرارًا منذ سنوات ، واتفقا أن يسير كل منهما فى حياته الخاصة حسبما يهوى دون أن ينتقد أو يعاتب الآخر ، وكانا يعتقدان أن حياة الخطر التى يعيشانها لا تسمح لهما بالزواج والاستقرار وإنجاب الذرية ، والتهديد سيف مسلط على رقابهما فى كل وقت ، ولا نجاة منه ، فما الذى جعله يغير رأيه؟ جاد الله؟ مستحيل ، فهو يعلم أن علاقاتها متنوعة ، ولم يغضب من ذلك فى يوم من الأيام ، كان يكتفى بأن تكون تحت رغبته إذا دعاها . .

- «قلت يا محفوظ إننى مدينة بحياتى لك . . وسوف أنفذ ما تطلبه منى دون تردد . . » .

وبدا على وجهه شىء من الارتياح وتمتم :

- «هذا ما توقعته . . » .

- «أو كنت تظن أمرًا غير هذا؟؟ تعرف كم أحبك ! ! » .

عاد إليه القلق وقال :

- «لكن ذلك الكلب سيظل ينبح وينبح . . ويطاردنا . . » .

- «لن نعدم وسيلة للتخلص منه . . » .

قال محفوظ :

- «هذا الصنف من الناس دواؤه إعدامه . . » .

قالت وهى تعاود الربت على شعره :

- «نستطيع أن نتخلص منه بأسلوب آخر . . أنت ذكى والقتل يلجأ إليه صغار العقول . . إنه فى ظاهره حاسم ونهائى . . لكنه فى الحقيقة قد يكون بداية النهاية . . استمع إلىَّ ولا تفعل ذلك . . يجب أن نتفق قبل أى إجراء . . مصيرنا واحد . . ومن حقى أن يكون لى رأى . . » .

قال محفوظ فى حدة :

- «جـــاد الله لن يرضى بأقل مما كـــان يأخــذ . . التنازل ليس من طبعه . . عاشرته سنوات . . » .

- «دع الأمر الآن . . ولنمرح ونسعد . . » .

وتزوج محفوظ من إنتصار ، وبدا واضحًا أنها سعيدة لذلك الإجراء المفاجئ، شعرت كأنها يمامة عاشقة تفىء إلى عش دافئ هادئ . . وسافرا إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل، وفى أيام المتعة والاسترخاء، كانت تتمنى أن تبقى هكذا حتى آخر العمر، إن معهما ما يكفيهما من المال لسنوات، وهما لا يخافان المستقبل على

الأقل لفترة ليست بالقصيرة، قالت إنتصار وهى تجلس إلى جواره فى شرفة فندق من الدرجة الثالثة وكان الوقت ظهرًا، والنسيم باردًا:

- «أتدرى فيما أفكر الآن؟؟».

- «فيم؟؟».

قالت كالحالمة:

- «الأمان.. والأطفال..».

قهقه قائلاً:

- «وأفكارك القديمة الراسخة..».

- «ليس هناك شىء ثابت فى هذه الدنيا المتعبة..».

أردف قائلاً فى مرح:

- «يموت الزمّار وأصبعه يلعب.. لقد فسد العالم ونحن جزء منه..».

التفتت إليه وقالت تصدق:

- «التجارة كنز لا يفنى..».

قال ساخرًا:

- «وجاد الله؟؟».

بادلته سخرية بسخرية وقالت:

-«سوف يحمل الرسالة من بعدنا.. إنه كفء.. نستطيع أن نبيع له ماكينة الطباعة والأكليشيهات.. وسيفرح بذلك أشد الفرح، ويتركنا إلى الأبد.. وينسى ثأره منك..».

قال محفوظ باسمًا:

- «ويكثر معه المال.. ويركب المرسيدس.. ويسرع بها فوق سفح الجبل.. في اتجاه القمة.. ثم يهوى بها في القاع قطعًا متناثرة».

وغمزت بعينها في دهاء:

- «وقد تكون هذه هي الطريقة الصحيحة للتخلص منه..».

نظر إليها بإعجاب:

- «بنت جنية..».

- «العفو يا أستاذي..».

●●●

عادا إلى القاهرة بعد فترة، كانت الإذاعة تذيع الخطابات السياسية الملتهبة، والشعارات الصارخة، والأناشيد الحماسية، وكانت الصحف تصدر بالألوان الحمراء والسوداء حاملة عناوين

بارزة عن المعركة القادمة، وعن قواتنا التى لا تهزم، وعن طائراتنا التى تحمى سماء الشرق الأوسط، وعن إسرائيل المذعورة، وعن تعليقات فى أوربا وروسيا وأمريكا، وتوقعات عن نهاية إسرائيل الحتمية، قال محفوظ:

- «الظاهر إن الحكومة ستحارب..».

قالت إنتصار دون أكتراث:

- «وما شأننا نحن..».

- «إنها بلدنا يا إنتصار..».

- «وماذا لنا فيها؟؟ الذل والإهانة..».

- «كلامك معناة الخيانة..».

- «أيكون خائنًا من يقول الحق يا محفوظ..».

شرد محفوظ بضع لحظات، كان يتمتم: «فى السجن رأيت شبابًا يموتون دون خوف، يلعنون الظلم والفساد، وهم يجلدون.. شباب فى عمر الزهور يا إنتصار. كاد جسدى يقشعر وهم يهتفون «الله أكبر» على الرغم من أنى لا أصلى.. كثيرًا ما سألت نفسى:

أين العدو؟؟ حتى المخلصون فى بلدنا لا يعرفون الطريق الصحيح.. هم مغرورون ويعتقدون أن كل ما يفعلونه صحيح.. وأن الناس لا تفهم..».

قالت إنتصار وهى تتثاءب :

- «معركتهم مع إسرائيل . . أما نحن فمعركتنا مع جاد الله . . » .

ثم قطعت حديثها فجأة وقالت :

- «نسيت أن أسألك ، هل أحضرت مجلة الشبكة؟؟» .

- «وكيف أنسى؟؟ إنها تحت الوسادة . . » .

- «اقرأ أنت أخبار الحرب ، وأنا أقرأ أخبار الفن . . » .

قال وهو يطوقها بذراعه : «أموت فى الفن . . » .

●●●



لم يدخر جاد الله وسعًا فى البحث عن إنتصار وعن محفوظ، ورأى بعد فترة أن العثور على محفوظ يعنى تكليل مسعاه بالنجاح، سأل المسجونين، وبحث فى أقسام التحريات بالشرطة، وظل يتجول هنا وهناك، بعد أن أخذ عطلة ليتفرغ تمامًا لهذا العمل، إن الآمال التى فى قلب جاد الله كبيرة جدًا، وهو لم يحقق منها إلا القليل حسبما يعتقد، وشهيته مفتوحة لمزيد من المال والمشروعات، وهو واثق أن إنتصار سوف تكون له مهما كان الأمر، ولن يترك أى وسيلة مهما كانت للوصول إلى هدفه، لكن الأيام علمته أن يكون حذرًا حكيمًا، وأن يخفف من غضبه وحنقه، ويعتصم بالصبر والكياسة، حتى يمسك ببغيته. وأدرك أن العنف والشراسة والتهور لا تحل أية مشكلة، هناك أسلوب الدهاء والسياسة، وإذا لم يكن يروق له هذا الأسلوب، فإن عليه أن يدرب نفسه عليه ما أمكن، عليه أن يراوغ كثعلب وينقض كذئب، ويلتهم كأسد جائع.. لكن متى؟؟ عندما تحين اللحظة المناسبة، وعليه أن يعالج الأمر مرحليًا، وبالتدريج يمكنه أن ينال كل ما يريد أو أغلب ما يريد...

عندما التقى بمحفوظ فى إحدى المقاهى الشعبية قال جاد الله :

- «أهكذا تخون العيش والملح؟؟» .

قال محفوظ وهو يضع ساقًا على ساق، ويرفع هامته فى اعتزاز وثقة، وابتسامة شاحبة على وجهه :

- «كنت أعرف أنك قادم . . وانتظرتك» .

- «أنت؟» .

- «نعم يا جاد الله . . لقد كنت أعرف تحركاتك ونشاطك . .

لكن ثق أنى لا أخونك . . فى السجن يا جاد الله يبالغ الإنسان فى تقدير الخدمات الجليلة . . والسجين يظل مدينًا طوال حياته بمَنْ واساه فى محنته . . » .

قال جاد الله وقد اطمأن قليلاً :

- «فلم التهرب منى إذن؟؟» .

- «كنت فى شهر العسل بالإسكندرية . . » .

قاسه جاد الله بنظرات قلقة، وهتف وقلبه يدق، وأنفاسه تتلاحق فى انفعال، وكأنه شعر بوقوع كارثة :

- «تزوجت أخيرًا . . وبسرعة؟ لكنى كنت أعتقد أنك متزوج . . » .

- «نعم . . . لكن الحقيقة غير ذلك . . أنت تعلم . . » .

قال جاد الله :

- «ومن صاحبة الحظ السعيد . . » .

قال محفوظ وهو يجذب نفسًا من سيجارته وبهدوء عاصف :

- «إنتصار . . » .

كاد جاد الله يتهاوى من فوق مقعده ، زاغت عيناه ، عَجَز تمامًا عن التعليق الفورى ، انداح فى فكره المشتعل معنًى حبيس «أيها الكلب النجس ، بين عشية وضحاها تحولت إلى أسد . . أنت تتلذذ بهزيمتى وعذابى . . » وشعر بدوار وظل غارقًا فى صمته لم ينطق بكلمة واحدة ، وجاء صوت محفوظ الساخر :

- «ألا تقول مبروك؟» .

قال والجبين النحاسى يتفصد عرقًا :

- «ألف مبروك» .

نظر محفوظ فى شك ، وتساءل :

- «من قلبك؟» .

- «بالتاكيد . . » .

تلفت محفوظ يمنة ويسرة ، وبعد أن اطمأن لما حوله ، همس :

- «هذا الكيس الملقى بيننا فيه ثلاثة آلاف دولار . . تعرف أن الدولار ارتفعت أسعاره هذه الأيام . . » .

فهم جاد الله ما يقصده محفوظ على التو، لقد أصبح محفوظ هو الزعيم أو المعلم الكبير، واختفت إنتصار عن الساحة، كان من قبل يتلقى الأوامر مع الكأس والنشوة، واليوم تلقى إليه التعليمات جافة مجردة، كأوامر الضباط للعساكر، أصبح العالم فى نظر جاد الله كالثكنة العسكرية.. أية حياة تعسة!! آه.. ذهبت إنتصار وبقى المال.. والذل، عمومًا لا بأس؛ لأنه الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق أحلامه، ولقهر خصومه..

تناول جاد الله الكيس الصغير، ووضعه تحت إبطه وهو يرتدى الزى الرسمى، وقال فى اقتضاب:

- «ليلتك سعيدة..».

قال محفوظ فى هدوء:

- «انتظر..»

نظر إليه جاد الله فى تشوف وقال:

- «أهناك أوامر أخرى يا سعادة البك؟».

ضحك محفوظ قائلاً:

- «نحن إخوة..».

وجذب نفسًا آخر من السيجارة، ثم استطرد:

- «هذه آخر دفعة..».

سقط جاد الله على الكرسى، وهو ينظر شاردًا مذهولاً إلى محفوظ، وتمتم وقلبه يخفق بشدة مرة أخرى:

- «ماذا؟ هل انتهى كل شيء؟».

قهقه محفوظ وقال:

- «لو كان الأمر كذلك لما أعطيتك هذا الكيس..».

- «لا أفهم شيئًا على الإطلاق..»

قال محفوظ، وهو يدوس بقية السيجارة المحترقة بحذائه الأسود اللامع:

- «سوف نعيد إليك الماكينة..».

دخل جاد الله ارتياح كبير، وحمد الله فى سره وقال:

- «هكذا؟».

- «نعم..».

- «وما السبب؟».

- «مجرد تغيير فى الخطة.. ونحن نثق بك مائة فى المائة..»

ووجد جاد الله أن فى هذا الإجراء الجديد مدعاة لمزيد من الكسب السريع، وتخلص من القبضة القوية التى يطوقون بها حركته، وسوف تكون أمامه فرصة لمزيد من الإنتاج، وإخفاء بعض

الأوراق المالية ليوزعها لحسابه الخاص، لقد أصبح الآن خبيرًا فى الطباعة وفى التوزيع أيضًا، ومما لا شك فيه أن محفوظ خائف، وخاصة أنه لم يخرج من السجن إلا منذ أيام قليلة، وقد تراقبه جهات الشرطة، فضلاً عن أنه لم يزل عريسًا جديدًا، وهو فى حاجة إلى الراحة. . وإلى الاستمتاع أيضًا. . وابتسم محفوظ وهو يقول:

- «لقد أصبحت مركزًا مستقلاً. . إنتاج وتوزيع. . لكن حذار أن تجند أحدًا لمساعدتك دون أخذ رأينا. . هذه أمور حساسة ودقيقة، ولا نسمح لأحد بأن يدخل إلى عالمنا الخاص إلا بعد التأكد والحرص الشديد. .».

قال جاد الله وهو يجفف عرقه:

- «أفهم. . لكن. .».

- «ماذا تريد أن تقول؟».

- «لا بد أن أقوم بواجب المجاملة. . أنت أخونا وإنتصار أيضًا لها فضل كبير علينا. .».

ضحك محفوظ وقال:

- «مبادرة طيبة منك. . وستفرح إنتصار كثيرًا لذلك. . وهى فى الواقع قد قررت أن تعد مأدبة دسمة تليق بالمقام، وفى وقت

قريب، وأفضل شخصيًا أن يكون ذلك بعد أن تنتهى من مهمتك هذه وطبعًا تعلم أن نصيبك من هذه «العملية» خمسين بالمائة».

ابتسم جاد الله وهو يضع الكيس بإحكام تحت إبطه:

- «ليس بين الخيرين حساب..».

وقال محفوظ وهو يصافحه مودعًا:

- «لا تركب الترام أو الأوتوبيس..».

ومشى جاد الله...

الغراب خطف منه إنتصار.. شعر أنه تنازل عن قلبه، ومضى بلا قلب، بدت الشوارع أمام عينيه خرابًا وسوادًا مثل يوم حريق القاهرة تمامًا منذ سنوات مضت.. طردوه من الجنة.. كانت أيامه معها حسبما يشعر كالحلم الرائع الجميل.. كل الأيام الجميلة تفلت من بين أصابعه هكذا فجأة، وبدون سابق إنذار، لكأنما كتب عليه أن يظل محرومًا لاهثًا ظامئًا جائعًا.. إنه لا يرتوى أو يشبع أبدًا.. إنه يدرك للمرة الأولى أن المال وحده لا يسعده، يا لفلسفته المتقلبة الغريبة!! أحيانًا يبدو كطفل يريد أن يستحوذ على شيء وبأية وسيلة، وأحيانًا أخرى يبدو حكيمًا عاقلاً متزنًا، وقد يندفع فى تصرفات رعناء هوجاء، وقد يتصرف فى روية وأناة، العالم من حوله ألغاز متراكمة، وهو الآخر لغز..

عندما دلف إلى بيته قالت ميمونة :

- «أعددت لك الملوخية والأرانب و . . .» .

قاطعها قائلاً :

- «لست جائعًا . .» .

قالت فى خبث ساذج :

- «هذه ليلة الجمعة يا رجل . .» .

سدد إليها نظرات حانقة ، وتراءت أمام خياله صورة إنتصار الأمل الضائع ، والوجه الغجرى ، اللذة والنشوة والجنون ، وصرخ فى ضيق :

- «اغربى عن وجهى . .» .

- «خير . . اللهم اجعله خيراً . .» .

وهمت بالانصراف ، لكنها توقفت فجأة ، واستدركت قائلة :

- «هل علمت؟ لقد نقلوا الأمباشى حسنين إلى سجن «قرة ميدان» .

رفع إليها وجهًا مستغربًا وقال :

- «لم أسمع بذلك فى السجن»

- «الجميع يتحدثون عن ذلك فى العزبة . . إنه لم يستلم الخطاب بعد ، لكنهم يؤكدون . .» .

- «لماذا؟».

- «لا أدرى.. أنت الذى تعرف.. وعلى العموم فإن سجن مصر أفضل من هنا بكثير.. شىء لله يا سيدة زينب..».

تحسس كيس الأوراق المالية، ثم ضمه إليه فى حنان وقال:

- «كلها سجون.. ربنا يتوب علينا..».

قالت ميمونة والتأثر بادٍ على وجهها:

- «كان رجلاً طيبًا.. يصلح بين الناس، ويجامل الجميع، ولا يتأخر عن خدمة أحد.. لقد خسرناه..».

قال دون اكتراث:

- «الطيب لنفسه.. والسيئ لنفسه..».

- «لقد انفتح له قلبى..».

- «لأنك عبيطة مثل أمك تمامًا..».

- «عبيط من يقول الحق؟؟ حسبتك ستحزن من أجل فراقه..».

جلس على السرير بعينين متعبتين، كان يراقب الأولاد دون اهتمام، ويتابع صور التلفزيون من غير تركيز، الرئيس يخطب والجماهير تهتف وتصفق، والضوضاء تصم الآذان، والمذيع يعلق ويردد الشعارات.. والرئيس يرفع صوته المؤثر العميق.. ويبدو

كعملاق أسطورى لا يُهزم . . وجاد الله لايستطيع المتابعة أو التركيز، لكن تتسلل إلى سمعه كلمات يسمعها جيداً . . الصهيونية . . الإمبريالية . . الرجعية . . الثورة المضادة . . حقوق العمال والفلاحين . . الحرية . . الكرامة . . الوحدة . . الاشتراكية . . الديموقراطية . . الإقطاع . . وجاءت ميمونة مرة أخرى وهى تحمل الطعام، وقالت :

- «سلاطة . . كوسة . . ملوخية . . أرانب . . ما هذا «العك» يا امرأة؟؟ . . لا مانع . . هاتى الأكل . . » .

وتجمع هو وأولاده حول الطعام الشهى، وأخذوا يأكلون معًا فى صمت، وضوضاء التلفزيون تتعالى، وأخذ ينظر إلى وجه أطفاله، لقد بدت على وجوههم أمارات الصحة والسعادة، منذ أن تحسن مستوى الغذاء فى المنزل، وارتاح لهذه الملاحظة وقال فى مرح :

- «كلوا . . واملئوا بطونكم . . وادعوا للرئيس . . » .

●●●

لم يمر يوم الجمعة التالى إلا وكان جاد الله قد وفى بالتزاماته، ووزع ما معه من أوراق مالية مزيفة، وعاد فى المساء متأخراً يحمل حصيلة العملية الناجحة، كانت السعادة تغمر كيانه، إن النقود الحقيقية تجعل متعته فى القمة، وتدخل الاطمئنان إلى قلبه، فهو

خائف -برغم شجاعته -إذا كان يحمل العملة الزائفة، ويتلفت يمنة ويسرة، ويظل على حالة قاسية من التوتر والتوجس إلى أن ينجز مهمته، فإذا فعل ذلك، تنهد فى ارتياح بالغ، وفاضت نفسه بالسعادة التى لا حدود لها، لكن آماله الكبار تظل تدفعه دفعًا لأن يبقى بين الخوف والرجاء، والتوتر والاطمئنان، يتأرجح كالبندول بين هذا وذاك، وبرغم العناء الذى يكابده، فإنه لا يريد أن يضع له حدًا أبدًا، ولا يبدو أن لطموحاته نهاية . .

وحدث ما لم يكن يتوقعه أبدًا . .

لقد وجد إنتصار بلحمها ودمها تدخل إلى بيته فى مساء السبت بعد العاشرة، وقف فى مواجهتها كالأبله لا يدرى ماذا يفعل، ثم انطلق يرحب ويلقى بالكلمات مبعثرة بلا معنى محدد، وطلب من زوجه أن تأخذ عيالها وتذهب إلى غرفة أخرى . . .

قالت فى اقتضاب:

- «أحضرت الماكينة وهى فى السيارة بالخارج . . » .

قال:

- «ولماذا لم يحضرها محفوظ؟» .

- «مجرد الحذر . . » .

قال غامزًا:

- «تريدين الحفاظ عليه وعدم تعريضه للخطر . . »

قالت بحزم:

- «إنه زوجى.. ولا مجال لأى قول آخر..»

- «تخونين العهد..».

قالت والقلق يساورها:

- «هناك أمور كثيرة من الصعب فهمها..».

- «أقسم إنى لم أفهمك قط..».

أشارت بيدها صوب الباب قائلة:

- «الماكينة أولاً.. والجو أمان..».

هرول إلى الخارج، ساعده سائق السيارة، ووضعت فى مكانها السابق، وما إن اطمأن إلى كل شىء، وأغلق عليها الباب، عاد إلى حجرته مسرعًا.. ولم يجد غير ميمونة.

- «أين ذهبت؟؟».

هزت ميمونة كتفيها فى غيظ فطرى، وقالت:

- «خرجت..».

هرول نحو الباب، ونظر فإذا بالسيارة تنطلق مخلفة غبارًا وضوضاء.. عاد ليبحث فى جيبة عن قطعة من الأفيون..

●●●



دارت الماكـــينة، وأفـــرزت من الأوراق الملونة، ذات الرائحـة المميزة فوق طاقتها، وكان جاد الله يقضى النهار عاملاً فى السجن وهو شبه نائم، ويقضى الليل منكبًا على الإنتاج، واستبدت به حالة من الجنون الجشع، ولم يغفل محفوظ وإنتصار، كان يحمل إليهما نصيبهما إن صح التعبير بعد أن يغير الزائف بالصحيح، وأصبحت حصته كبيرة، وبدا الذبول والشحوب على وجهه، كما قلل من التفكير فى إنتصار التى لم يعد فيها أمل على الأقل فى تلك الفترة، وفى أتون ذلك العمل الدائب المرهق نسى حسنين والبحيرى والسجن، نسى كل من حوله، ووجد فى عالمه الخاص غنى عن كل شىء، ولم تكن ميمونة من الغباء بحيث لا تدرك خطورة ما يفعله زوجها منذ البداية، وكانت تتوجس خيفة مما يجرى فى بيتها، وتصاب بالذهول وهى ترى رجلها يرمى الأوراق المالية الكثيرة فى نهم بالغ، وعيناه ترمقان هذا الفيض الهائل من المال، وهمست ذات مرة فى شىء غير قليل من الخوف:

- «لو أبلغوا عنك لضعنا..».

- «من يفعل ذلك يا بلهاء، هذا سر لا يعرفه أحد..».

- «الحيطان لها آذان والماكينة تدق..».

قال لها وهو شارد:

- «عندما نشبع فسنهيل التراب على كل شيء، ونعيش في أمان..».

- «لن تشبع أبدًا يا جاد الله..».

- «العاقل يا ميمونة من يعرف متى يبدأ، ومتى يتوقف..».

تنهدت في حسرة:

- «الخوف لا يتركنا في الرخاء وفي الشدة..».

- «والخائف يا ميمونة يبقى في آخر الصف..».

أمسكت بيده وقالت:

- «ومتى ينتهي ذلك العذاب؟؟ أنت رجل حكومة..».

- «رجل حكومة.. نعم.. وهذا هو الستار الذي أختفي وراءه.. والبلد الآن في هرج ومرج.. ألا تسمعين أغاني الحرب.. ليس في مصر الآن من يفكر في رجل تافه مثل جاد الله.. وهذه فرصة لا تعوض.. إنهم مشغولون بالحرب والسياسة..».

ثم رفع يديه إلى السماء وهتف ضارعًا :

- «اللهم احفظها نعمة، وأدمها طوارئ يا رب . . » .

●●●

طوال هذه الفترة كان محفوظ يحقق الفكرة التى أشارت بها إنتصار، لقد ذهب إلى الإسكندرية، ودفع خلواً كبيراً لاستئجار محل بقالة، كما اشترى ثلاث سيارات أجرة (تاكسى) يشغلها لحسابه، واستأجر شقة صغيرة للسكن واختارت إنتصار لها الأثاث المناسب، وانتقلت فعلاً إليها، وبدءوا حياتهم الجديدة، وقرروا مبدئيًا التوقف عن عملية تزييف العملة، ولم يكن جاد الله الغارق فى دنياه الخاصة على علم بما جرى، كان يلتقى بمحفوظ فى موعد محدد فى مكان يتفقون عليه، ويتسلم منه نصيبه أو حصته من المال دون مناقشة، وهذا ما أراح جاد الله، إذ استطاع أن يغالط فى الحساب، ويوزع لحسابه ما شاء، مرتاحًا لهذه الثقة المطلقة التى أولاه إياها محفوظ .

وبرغم نذر الحرب التى تنطلق هنا وهناك، والحشود العسكرية على الحدود بين مصر وإسرائيل، والتعبئة العامة التى أعلنت، رغم كل هذا كان جاد الله لا يفكر إلا فى الطبع والتوزيع والامتلاك، ومن خلال الممارسة اليومية استطاع أن يرشو ويهادن ويتنازل،

وأصبح عميلاً مأمونًا قويًا وموثوقًا به فى السوق، لم يعد فى حاجة لأحد، وفكر جديًا فى قطع صلته بمحفوظ كما فكر فى نقل الماكينة إلى مكان جديد لا يعرفه أحد، وفى آخر مرة التقى فيها بمحفوظ قال له:

- «من الأفضل يا جاد الله ألا نلتقى إلا كل شهر.. واللقاءات الأسبوعية لا ضرورة لها.. ونحن نفكر الآن فى أن نبيع الماكينة عندما نستطيع تدبير ثمنها..».

طرب جاد الله للفكرة وهتف:

- «و بيننا ميثاق شرف..».

- «وأنت وفىٌّ يا جاد الله..».

- «وأنا لا أستغنى عنكم..».

- «ونحن كذلك..».

- «وهل أفهم أنكم ستفصلون؟؟».

- «على الأقل حتى تستقر الأمور.. ويتحدد مصير الحرب، وتنتهى حالة الطوارئ..».

سدد إليه جاد الله نظرات نافذة وقال:

- «هل اشتريتم ماكينة جديدة..».

ابتسم محفوظ وقال:

- «الصبى يتحول إلى معلم.. والمعلم الصغير يصبح كبيرًا.. هذا يحدث دائمًا فى مثل هذه الحالات.. ونحن نحاول أن نرضى بالواقع، ونساير الزمن، ونسبق الحوادث..».

- «وباقى الشبكة..».

- «لم تعد هناك شبكة بالمعنى الصحيح.. إن سياستنا تختلف عن سياسة الحكومة، فعندما يبلغ «أبناؤنا» سن الرشد نسلمهم الأمانة، ونجعلهم يعتمدون على أنفسهم.. نحن ديمقراطيون ويذهب كل إلى حال سبيله.

سافر محفوظ إلى الإسكندرية، وبدأ يوثق علاقاته برجال الميناء والجمارك، ويشارك فى بعض الصفقات المتعلقة بالسيارات المستوردة ومواد البناء وبعض السلع الأخرى، واكتشف أن عالمه الجديد كفيل بأن يدر عليه دخلاً كبيرًا، وأنه أكثر أمنًا وأمانًا، وخاصة عندما أصبحت إنتصار حاملاً، وبدت عليها أعراض البدانة، وأصبحت أشد رغبة فى البقاء فى مسكنها، ، وعافت الخروج والسهر والعبث.

وأصبح جاد الله هو الآخر حرًا، بعد أن تحرر من سلطان الآخرين، ودفع ثمن الماكينة...

ولم يكد يمر شهر واحد، حتى فوجئ محفوظ بأحد رجاله القدامى يأتي إليه في فزع، ويقول:

- «قبضوا على جاد الله..».

اضطجع محفوظ على كرسيه، وقد بدا عليه ما يشبه المفاجأة، وقال وهو يفرك أصابعه في شيء من التوتر:

- «هذا ما توقعته؟؟».

- «وأنت؟؟

- «لا صلة لي به من زمن..».

- «كنا نقدم له بعض المواد.. كان يتعامل معنا..».

- «هذا شأنكم.. تعرف أنني تركت العمل منذ زمن.. كان السجن درسًا قاسيًا لا أريد أن يتكرر.. وقد أصبحت مشبوهًا... أو كما يقولون ورقة واحترقت..».

- «فقط أردت رأيك كصديق ذي خبرة قديمة.. ماذا نفعل؟».

فكر محفوظ قليلاً، وقال:

- «ليس هناك ما يدينكم.. أنتم تعرفون ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال، لا تتركوا أثرًا لشيء.. غيروا مساكنكم.. وأوقفوا نشاطكم.. فقد يعترف بعلاقته بكم.. أما إذا أغلق فمه، وكان

رجلاً، وفعل مثلما فعلت أنا، ، فسوف تتكلفون بشئون بيته، وتساعدونه فى قضيته الشائكة ولا شىء غير ذلك..».

●●●

كان القبض على «جاد الله» دويًا هائلاً فى أرجاء «ليمان طرة» دق المدير كفًا بكف وهتف : «من يتصور؟؟ ياله من ملعون!»، وأخذ رفاقه من السجانة يروون القصص عن الملايين الخرافية التى جمعها من وراء التزييف، والعزب والبيوت التى اشتراها، وكان المسجونون الذين يعرفونه يضحكون فى شماته، ويحاولون دراسة القضية وتحليلها، وأكثر من واحد أكدوا أن وراء تلك الحادثة المفاجئة السجين السابق «محفوظ» المزيف الشهير، وتقاطر النسوة -فى عزبة السجانة- إلى بيته يواسين زوجته وأولاده، وكانت ميمونة تشق ثيابها، وتلطم خدودها، وتلطخ وجهها بالطين، وأصابها ما يشبه الخرس حينما دهم رجال البوليس بيتها، ومعهم زوجها فى يده القيود، وقاموا بالتفتيش، وعثروا على الماكينة والأدوات والمواد المستخدمة فى التزييف، كما وجدوا مبلغًا كبيرًا من العملات الصحيحة والزائفة أيضًا وهى النوع نفسه الذى وجدوه فى حوزته عند القبض.

كان جاد الله زائغ النظرات، منكس الرأس، فى عينيه دمعتان

تأبيان أن تنحدرا، وشحوب الموتى يكسو وجه المكتئب . . ولم يكن يستمع إلى الكلمات والتعليقات التى تتناثر حوله :

ربنا معك يا جاد الله . .

شدة وتزول يا جاد الله . .

سنوكل لك أكبر محامٍ فى البلد . .

كان جاد الله لا يلتقط من بين الأصوات العديدة إلا صوت «ميمونة» وهى تصرخ وتولول، ولم يكن يرى الوجوه إلا وجوه الأطفال الأربعة وهم يبكون فى رعب، وكانت ابنته «شادية» بينهم تنظر فى بلاهة وضياع .

وتمتم جاد الله بينه وبين نفسه قائلاً : «تغذى بى محفوظ قبل أن أتعشى به . . والله لأجرن رجله فى القضية . . آه . . ولن أترك له إنتصار . . وليكملوا شهر العسل فى السجن . . اللعنة على الجميع . . وتم فرض الحراسة على كل ما يمتلكه جاد الله وزوجه وأولاده، وبالغ الناس كثيرًا، وجعلوا منها شيئًا خرافيًا . .

وأثناء تحقيق النيابة جاء حسنين أبو زهرة متلهفًا دامعًا، ووجهه يتصبب عرقًا، لقد سمع بالخبر، فلم يتوانَ عن الذهاب، على الرغم من تحذير الأصدقاء والإدارة له بعدم الاتصال به فى هذه

الأوقات الحرجة، وانتظره حتى خرج من غرفة التحقيق، وتلقفه باكيًا بين ذراعيه. وهتف:

- «هذا قضاء الله يا جاد الله.. لا ملجأ من الله إلا إليه..».

دارت الكلمات فى رأس جاد الله المتعب المكدود، الذى لم ينم طوال الليل، وعلى الرغم من تشوش أفكاره، وانهياره جسديًا ومعنويًا، إلا كلمات حسنين نفذت إلى أعماقه، فلأول مرة يدرك جاد الله أنه وحده، وأن الملجأ الوحيد هو الله.. لكن متى؟؟ فى وقت متأخر جدًا، وبعد أن نفذ القضاء، ويعجب جاد الله كيف لم يفهم ذلك من قبل، وفى الحياة كل يوم ألف حادثة وحادثة تؤكد ذلك، وفى السجون عشرات الألوف من القضايا الدالة على صدق ما قاله حسنين.. لم ينطق بكلمة.. قال حسنين وهو يجرى وراءه، ورجال الشرطة يجرونه جرًا:

- «اطمئن على عيالك يا جاد الله.. إنهم أبنائى.. هم لا ذنب لهم..».

والتفت جاد الله إلى حسنين عندما كان يصعد إلى السيارة المقبوض عليهم الكالحة الكئيبة:

- «سوف آتى إليك يا حسنين فى سجن القاهرة سجينًا بعد أن كنت إلى جوارك سجانًا..».

ثم انفجر باكيًا بصوت عالٍ . . كان كامرأة تنوح وتولول .

●●●

في المساء قصد حسنين بيت شيخه، كان الرجال قد تحلقوا حوله من جديد، بعد أن اقتنعت المباحث تمامًا بسلامة مقصدهم، حيث توسط أهل الخير بين الطرفين، وعادت الأمسيات الشجية حيث الذكر والدعاء وقراءة القرآن والدروس الندية المؤثرة، وبعد السلام وتبادل التحيات، قال حسنين في ألم :

- «قبضوا عليه متلبسًا يا شيخنا . . » .

- «من؟» .

- «جاد الله . . » .

فكر الشيخ قليلاً، ثم هز رأسه وقال :

- «غلبتك على خطيئتك . . » .

- «سالت دموعه كالبحر . . وكان الندم يتجسد على وجهه . . » .

- «ادعوا له . . واجمعوا قروشًا لأولاده . . فليرحمه الله . . » .

وأخذ الشيخ يحدثهم عن شروط التوبة، وضرورة الندم، والعزم على عدم إتيان المعاصي، ورد الحقوق لأصحابها،

وأخبرهم كيف أن الرسول أوصى بالاستغفار، لأنه ﷺ كان يتوب إلى الله كل يوم مائة مرة، وشرح لهم أن أمر المؤمن كله خير؛ لأنه إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، وقال أحد الجالسين:

- «بدأت الحرب ياشيخنا..».

قال الشيخ فى ثقة:

- «وهل توقفت الحرب لتبدأ؟؟ فى كل يوم تسيل الدماء، وتزهق الأرواح والنار لا تنطفئ أبدًا.. ولهذا فإن الجهاد فريضة أبدية والذين يخافون الموت حمقى، أى أبنائى الخلصاء.. لا تتقاعسوا عن الخروج فى سبيل الله إن استطعتم.. وقدموا ما تقدرون عليه، واجعلوا خروجكم خالصًا وحده..».

ثم أخذ يترنم بصوته العذب الحنون، ويتمايل مع مقاطع اللحن فى وقار وذوبان:

قلوبُ العاشقين لها عيونُ

ترى ما لا يراه الناظرون

وألسنةٌ بأسرار تنادى

تغيبُ عن الكرام الكاتبينا

وأجنحةٌ تطيرُ بغير ريشٍ

إلى ملكوتِ ربِ العالمينا

رجالٌ طلّقُوا الدنيا ثلاثًا

وعن فعلِ المعاصى تائبونا

أظلمت القاهرة، وانطلقت صفارات الإنذار، وصمت الآذان لانطلاق الطائرات فى الأجواء الرحيبة، والمذياع يبعث طلقات من الكلمات والشعارات والبينات العسكرية، والأرض تكاد تميد، ومؤشرات المذياع تنتقل من موجة إلى أخرى، وأخبار بشتى اللهجات واللغات، وأقوال متضاربة متناقضة، لا يمكن أن تفرز من خلالها وجه الحقيقة، والشيخ البحيرى ورجاله يستمعون بقلوب خافقة..

قال الشيخ:

- «ستبيتون هنا الليلة.. هذا أمر لا مفر منه ولنقضِ الوقت فى قيام الليل.. ولنضرع إلى الله بقلوب نقية، لعله يكشف الغمة، ويحفظ الملة، ويقهر العدو، وينصر الحق ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ولتكن هذه ليلتنا الأخيرة.. فمن استطاع منكم أن يلتحق بالدفاع المدنى أو ليتطوع

مع الفدائين . . أو يقدم شيئًا من ماله أو نفسه أو ولده فليفعل . . فالجهاد اليوم فرض على كل مسلم . . واعلموا أن الجهاد عبادة . . وانسوا ما حاق بكم من مظالم . . فهذا يوم النقاء والفداء . . أثابكم الله . . » .

لمعت فى ظلام الحبس بارقة أمل واهنة لجاد الله ، فقد شبت الحرب ، واندلع لهيبها ، وانشغل الناس بها كل الانشغال ، حتى النيابة ورجال الشرطة ، وقدر جاد الله أنه فى مثل هذا الجو المضطرب الرهيب ، قد تعفو الحكومة عن السجناء والموقوفين وتعفو عن الجرائم التى حدثت فى تلك الفترة بالذات ، إنه كالغريق يتعلق بقشة ، واشتداد الأزمة ، مع اليأس من انفرجها قد يوحى بآمال وأفكار خيالية كتلك التى تفرزها عقول الأطفال . .

- «سامحنى يا بك . . » .

- «المسامح ربنا يا جاد الله . . » .

- «أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتنى . . فى عرضك . . » .

- «أنت رجل شرطة وتعرف يا جاد الله . . » .

- «لحظة ضعف يا سعادة وكيل النيابة . . » .

- «القضية معقدة . . وأنت ذو خبرة يا أمباشى . . » .

- «لعنة الله على محفوظ وإنتصار . . هما ورطانى . . ».

- «لقد بعثنا فى استدعائهما . . إنهما لا يعيشان هنا . . ».

- «غير معقول . . ».

- «فى الإسكندرية منذ زمن . . ».

دمعت عينا جاد الله وقال :

- «لو أفرجتم عنى، لذهبت فوراً إلى الجبهة لمحاربة إسرائيل . . سأكون سعيداً لو مت هناك . . أنا أفضل الموت دون الدخول إلى السجن سجيناً . . بعد أن كنت . . آه يا مصيبتك يا جاد الله . . ».

●●●



مشى بخطى مرتعشة، نظر حواليه فى ميدان سجن مصر الواسع، إنه سوف يدلف لأول مرة إلى الداخل كسجين.. «يا حسرتى»!! سوف ينظر إليه رفاق الأمس بعين كلها الاحتقار، وسيعجبون من رجل نظام والقانون الذى احتقر النظام والقانون، وسيغلق عليه باب الزنزانة، ويختلط بالسجناء ويصبح واحداً منهم، لقد صدر أمر النيابة بتجديد حبسه على ذمة التحقيق، توقف مرتبه، ووضعت كل ممتلكاته تحت التحفظ، وإذا أدين فسوف تستولى الحكومة على كل ما يملك «يا حسرتى!».. خرج محفوظ كالشعرة من العجين، لم يستطع جاد الله أن يقيم عليه الدليل، أو يقدم شهوداً تماماً على اشتراكه فى الجريمة، أما إنتصار فقد كانت واثقة من نفسها تماماً، وادعت أنها استخدمت جاد الله السجان كناقل لرسائلها الشفوية إلى خطيبها محفوظ فى السجن، ولا شىء غير ذلك، وحاول جاد الله أن يستشهد بزوجته ميمونة، فلم تقتنع

النيابة . . وخرجت إنتصار هى الأخرى فى صحبة زوجها، وذراعها فى ذراعه، وبقى جاد الله حبيسًا وجميع القرائن تشهد بإدانته، حتى المحامى الذى أتوا به للدفاع عنه، لم يخف أن المتهم وضعه سيئ للغاية . . «يا حسرتى !!» حاول جاد الله أن يسترحم، وأن يتذكر ماضيه فى السجن الحربى، وخدمته الطويلة للحكومة، وتأديبه للسياسيين المعارضين المارقين، وتعاونه مع أجهزة أمن الدولة، فلم يكترث وكيل النيابة لكلامه، وجن جنونه، وصرخ فى وجه الوكيل قائلاً:

- «لست المجرم الوحيد فى البلد . .».

حينما دخل جاد الله السجن، كان جبينه ينضح عرقًا، تجمع حوله رفاقه السجانة، قال أحدهم:

- «هكذا تضيع نفسك وعيالك . .».

لن يسعفه منطقه بكلمة واحدة، وهو اللسان الثرثار المتفلسف، وقدم نحوه ضابط حديث التخرج، ونظر إليه شذرًا وقال:

- «أنت جاد الله . . الله يخيبك!! فضحتنا . . .».

واقترب منه سجين معتاد الإجرام «سوابق»، تردد على مختلف سجون الجمهورية، وقال هامسًا فى سخرية:

- «شرفت الديار يا جميل . .».

أمروه بخلع ملابسه الأصلية، وأعطوه ملابس السجن، وفتشوه بدقة، لم يصبح على جسده سوى السروال والسترة وقميص بلا أكمام، ملابس ليس فيها جيب، إنها أشبه ما تكون بالكفن، دخل السجن مجرداً من كل شيء إلا ما يستر جسده، هكذا ولد، وهكذا يموت.. سمحوا له بحذائه الأسود.. أخذ يجر هيكله المتهالك جراً.. وذهب إلى عنبرج، حيث المحجوزون تحت التحقيق فى الدور الأول، عندما وقف على باب العنبر وجد أمامه الأمباشى حسنين فى يده المفتاح الكبير، والصفارة معلقة فى رقبته، والمسبحة فى يده.. وتمتم حسنين والدموع تتأرجح فى عينيه:

- «ادخل يا جاد الله.. وعد ومكتوب..».

ثم غمغم: «يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلوبنا على دينك..».

ويمضى جاد الله كأنه فى حلم، الظلام فى روحه وقلبه ورأسه، برغم ضوء النهار الباهر، والذكريات تتزاحم فى رأسه، طالب الطب الذى قتله ذات يوم فى السجن الحربى، وارتمى ينتفض وينزف كحمامة بيضاء بريئة، المتأله الصغير يهتف «أنا جاد الله، وحش السجون الحربية»، والسوط الأسود فى يده، يطوحه كيف شاء، ويضرب به فى قوة، ويدمى الأجساد العارية.. الكأس وامرأة جميلة مشتعلة الجسد، رزم الأوراق المالية، وعقود

الملكية . . وليالى الانطلاق والآمال . . «عجيب يا زمن . . »، لقد كتب عليه الشقاء حتى فى أوج استمتاعه، كان جائعًا دائمًا، ظامئًا دائمًا، شعور عميق بالفقر يستولى عليه، وهو يحوز آلاف الجنيهات . .

ووضعه حسنين فى زنزانة انفرادية ليس فيها أحد، أعطاه طعامًا وسجائر، واساه بكلمات حزينة كأنها قصيدة رثاء، ملأ له جردل الماء، وأعطاه دلوًا للتبول، «وبرشًا» جديدًا، وبطانية سميكة وهمس:

- «سوف أحضر لك الطعام يا جاد الله . . ».

- «ليس بى أدنى رغبة للأكل . . ».

سمع «جاد الله» الناس يتحدثون عن انسحاب الجيش من خط الدفاع الأول إلى خط الدفاع الثانى ، وتمكنت إسرائيل من ضرب طائراتنا الجاثمة على الأرض، وتبعثرت قواتنا فى صحراء سيناء، وشاهد كيف يتكلم السجانة والسجناء فى حزن، كما سمع هرجًا ومرجًا، وفهم أن المسجونين السياسيين من الإخوان المسلمين الموجودين فى الدور الثالث، يطالبون بالسماح لهم بالتطوع والانضمام للمحاربين، لم يكترث جاد الله لما يجرى حوله، كانت مصيبته الكبيرة تشغله عما عداها، شعر بضيق فى تنفسه، اقترب من باب الزنزانة، كان الباب عبارة عن قضبان رأسية يقطعها قضبان

أفقية قليلة، بحيث يرى الواقف أمام الزنزانة كل ما بداخلها. . أمسك «جاد الله» بالقضبان بيد متصلبة، وأخذ يشهق ويزفر بصعوبة، إنه يكاد يختنق، سمع صوتًا من الدور الثالث ينادى :

- «أية خدمة يا سى جاد الله؟؟».

نظر إلى أعلى، إنه أحد الإخوان الذن كانوا فى سجن طرة، وقد قدم لسجن مصر للعلاج. . لم يرد، لوح بيده شاكرًا فى توتر. . إنهم فى كل مكان. .

وقضى جاد الله يومين لا يأكل ولا ينام، أخذ يتأوه بصوت مكتوم فى البداية، ثم أخذ تأوهه يعلو تدريجيًا، حتى أصبح مسموعًا فى كل أنحاء العنبر، أطل السجناء أثناء الليل عبر القضبان يشهدون جاد الله وهو يعوى كذئب جريح داهمه داء الكلب، وكانوا يمصمصون وهم يسمعون عواءه، ويرون تحركاته الحبيسة خلف القضبان، وبعضهم ينادى «الصبر يا جاد الله. . لقد أفلت الزمام من يده، وترك نفسه على سجيتها تعبر عن أساها وأحزانها، وأخذ يضرب رأسه فى الحائط، ويدق الأرض بقدميه، ويضرب على صدره كثكلى فقدت وحيدها، لم يعد يخجل أو يستحيى من إظهاره ضياعه ويأسه. . وبرغم كلمات المواساة التى تتناثر وراء أذنيه، إلا أنه يشعر أنه وحده. . لا أحد معه. . تخلى عنه أهل الأرض والسماء، حاول «خفير الليل» -السجان الليلى- أن

يتحدث معه، ويخفف عنه، لكن جاد الله لم يعره اهتمامًا، بل ظل على هذيانه وعوائه وذهول نظراته التعسة. . .

في الصباح جاءه حسنين وقال في حزم:

- «أفق يا جاد الله ماذا بك؟؟».

- «بي ما تحمله الجبال. . ».

- «الله هو مفرج الكروب يا رجل. . ».

- «ضعت. . وانتهى الأمر. . ».

- «اصبر. . وابدأ من جديد. . ».

- «هذا زمان اليأس يا حسنين. . ».

وأخذ يصرخ من جديد، واستدعى طبيب السجن، وأعطاه مسكنًا قويًا، محاليل طبية عن طريق الوريد، لتعوض نقص الغذاء، وتخفف من انهياره. . ونام. .

في اليوم التالي فتح حسنين باب زنزانته، ودعاه للخروج كي يجلس معه في الدور الرابع، يشرب الشاي، ويتسلى حتى يألف الوضع الجديد وينسى، لا بد أن يندمج مع خلق الله، ويتقبل الكارثة التي حلت به، حتى يتضح الأمور، وإدانته لن تكون نهاية العالم، إن أمامه فرصة لبداية جديدة، ولا يصح أن يستسلم لليأس التام، ووافق جاد الله، وأخذ يتجول في أنحاء العنبر على

استحياء، كان يشعر أن العيون تلاحقه من كل صوب، وكان يشعر أن الحياة لم تعد لها قيمة، وأقلقه وضع ميمونة والأطفال، بعد أن تم التحفظ على كل ما يمتلكه من مال وعقار وأرض، «والملعون محفوظ يمرح ويسعد فى الإسكندرية، آه.. وإنتصار هى الأخرى توقفت فى الوقت المناسب، ونامت فى أحضان الاطمئنان والرخاء والتجارة، ورمت لى بالماكينة الصدئة بعد أن استنفدت أغراضها، وبقيت أنا بلا شىء..»، ثم أخذ يستعيد اللحظة القاتلة عندما أمسكوا به فى شارع «الشواربى» متلبسًا.. شعر وقتها أن العملاء خانوه، وأن الشرطة أوقعت به، وأن المصائب تكاثرت عليه، لم يجد منفذًا للهرب، كان كل شىء مرتبًا، لكأن جاد الله هو المجرم الوحيد، والمزيف الوحيد، فى عالم اليوم.. أى ظالم يجتاح هذه الحياة.. إن لم يجن فسوف يموت من الحسرة.. لم يعد يطيق أن يرى أحدًا أو يسمع أحدًا، وليس لديه صبر لأن يتابع الذهاب إلى المحكمة من يوم لآخر، ويقف فى القفص.. وينظر الحكم..

سمعهم يقولون إن الهزيمة حلت، وإسرائيل بلغت شاطئ قناة السويس، والرئيس «تنحى».. والمظاهرات تملأ الشوارع.. وجنودنا عادوا متورمى الأقدام، محطمى النفوس، وخلقٌ كثير دفنوا فى رمال الصحراء.. فكر جاد الله سريعًا فيما سمع.. لم يكن يعنيه الأمر كثيرًا، إذ إن مأساته قد ملأت عقله وقلبه.. أخذ يتجول فى الطرقات بجوار السياج الحديدى الذى يمتد بطول

السجن وعرضه، على بعد متر من أبواب الزنازين . . سمع صوتًا ينادى من أسفل . .

- «أغلقوا الأبواب . . إيراد جديد . . » .

كان جاد الله قد صعد إلى الدور الرابع يتجول فى المشى . .

قال حسنين فى رقة :

- «انزل يا جاد الله إلى زنزانتك . . يبدو أن هناك دفعة كبيرة قد اعتقلت من رجال السياسة والحرب . . أو لعلهم أسرى من اليهود . . » .

غمغم جاد الله فى حزن :

- «أسرى؟ نحو الأسرى . . » .

نظر جاد الله أسفل، رأى القاع السحيق للعنبر يلمع نظيفًا، والعساكر يروحون ويجيئون، جاءه خاطر . . وهو -كالعادة- سريع الاقتناع وسريع التنفيذ . . ما دام الموت هو النهاية، فلم الانتظار؟ واشتعلت رأسه بخاطر جنونى لم يلحظه أحد، ولم يتوقعه أحد، ووثب من فوق السياج . .

وسقط جاد الله . . .

فى لحظات كان ملقيًا فى القاع وسط بركة من الدماء، بعد أن تحطم رأسه، وتهشم جسده . .

وتعالى الصياح . . واهتزت أروقة السجن . . وانطلقت صفارات السجانة . . . وهرب المسجونون إلى جحورهم . .

وفى اليوم التالى جرى تحقيق سريع . .

وحفظت القضيتان . .

قضية التزييف . .

وقضية انتحار جاد الله . . .

وجوزى الأمباشى حسنين بخمسة أيام خصمًا من مرتبه، لسماحه لمحجوز تحت التحقيق، بالصعود من الدور الأرضى إلى الدور الرابع . . وكانت مصر كلها فى مأتم كبير . .

ودفن جاد الله فى مقابر الصدقة . . .

- تمت -

●●●

•• كتب للمؤلف

روايات:

١- الطريق الطويل .
٢- فى الظلام .
٣- عذراء القرية .
٤- اليوم الموعود .
٥- رأس الشيطان .
٦- الربيع العاصف .
٧- النداء الخالد .
٨- الذين يحترقون .
٩- أرض الأنبياء .
١٠- طلائع الفجر .
١١- ليل الخطايا .
١٢- ليل العبيد
١٣- ابتسامة فى قلب شيطان .
١٤- الكأس الفارغة .
١٥- نور الله (جزءان) .
١٦- قاتل حمزة .
١٧- مواكب الأحرار .
١٨- الظل الأسود .
١٩- الرايات السوداء .

مجموعات قصص قصيرة:

٢٠- موعدنا غداً .

دراسات:

شعر:

مسرحيات:

●●●